

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة

مصر النهضة

عصر حكيان

أ.د. أحمد عبد الرحيم مصطفى



اهداءات ٢٠٠٣

امرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية



مرکز وثائق و تاریخ مصر المعاصر

إشراف: د. د. يونان لبيب رزق
مكتبة التحرير: خلف عبد العظيم الميرحي

الاجراج الفني : مراد نسيم

عَصْرُ حَكَمِيَّان

١٠ د. أحمد عبد الرحيم مصطفى



المطبعة الشعبية - بيروت

١٩٩٠

تقديم

هذه موضوعات أربعة كتبها الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم مصطفى في مناسبات مختلفة .

وما تقوم به « مصر النهضة » من جمع هذه الموضوعات
ونشرها في أحد أعدادها له أسبابه .

فالأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أستاذ
جيل من المؤرخين وكل ما يكتبه ينبغي الحفاظ عليه وتوفيره
لجموع الباحثين ، فهذا حقه كما أنه بنفس القدر حق أبناء
الأجيال الجديدة من الراغبين في متابعة ما كتبه .

ثم ان الموضوعات الأربعة التي تنشرها مصر النهضة في
هذا العدد تجمع بينها وحدة موضوعية اذ انها تعالج في

غالبها تلك الفترة الغامضة من تاريخ مصر بين نهاية عصر محمد علي وبدايات عصر اسماعيل .

أضف الى ذلك أننا كنا حريصين في مصر النهضة على اقتناء ونشر عينات من تلك المجموعة الثمينة من أوراق حككيان التي تفضل الدكتور أحمد عبد الرحيم فمنحها لهذا العدد لنشرها كملحق له لتكون عوناً للباحثين في تلك الفترة .

ولأهمية هذه الأوراق من جانب ، ولأن الموضوعات التي تضمنها هذا العدد يجمع بينها أنها وقعت كلها في عصر حككيان . فقد رأينا أن نطلق على مجموعة هذه البحوث « عصر حككيان » .

والأمل معقود على أن تكون هذه المجموعة من الموضوعات مصدر فائدة للباحثين في تاريخ مصر الحديث .

وعلى الله قصد السبيل

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

الموضوع الأول

جوانب من علاقات مصر الخارجية

في عهد عباس الأول

بعد هزيمة القوات العثمانية على يد قوات محمد علي في معركة نزيب في يونيو ١٨٣٩ (١) أصبحت الامبراطورية العثمانية في مهب الرياح . ورغبة من سياسة الدولة في كسب مساندة الدول العظمى الى جانبها فانهم أعلنوا برنامج الإصلاحات الذي تضمنه خط شريف جلخانة وعرف في مجموعة باسم التنظيمات الخيرية لأنها استهدفت (تنظيم) شئون الدولة وفق أسس جديدة في جميع المجالات الادارية والمالية والقضائية والتعليمية . وقد أكدت التنظيمات على نقاط ثلاث هي :

١ - توفير الضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأموالهم مما يستدعي علانية المحاكمات ومطابقتها للوائح والغاء اجراءات مصادرة الأملاك .

٢ - ايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام .

(١) استقيت معظم المادة الواردة في هذا البحث من وثائق وزارة الخارجية البريطانية .

٣ - توفير نظام ثابت للجندية بحيث لا تقل مدى الحياة بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع وخمس سنوات .

وبالإضافة الى ذلك فقد أكد الخط الشريف للمرة الأولى وبصفة رسمية المساواة بين جميع رعايا السلطان أمام القانون .

وبعد صدور خط شريف جلخانة وقفت بريطانيا الى جانب الدولة العثمانية رغبة منها في تدمير الامبراطورية المصرية وما تضمنته من أخطار على المواصلات البريطانية صوب الهند . لهذا سعت الى تشكيل تآلب دولي أمكنه إلحاق الهزيمة بمحمد علي وارغامه على الانسحاب من كل أملاكه باستثناء مصر والسودان ، ثم تحدد وضع مصر الدولي بمقتضى معاهدة لندن الموقعة في أول يونيه ١٨٤٠ والخط الشريف الموجه الى محمد علي والصادر في ١٣ فبراير ١٨٤١ والفرمان الصادر في أول يونيه ١٨٤١ . وقد حددت هذه الاتفاقيات والمراسيم وضع مصر القانوني الذي ظل ساريا الى أن تنازلت تركيا عن سيادتها على مصر بمقتضى معاهدة لوزان الموقعة في عام ١٩٢٣ .

ولقد نصّ الفرمان الصادر في أول يونيه ١٨٤١ على حق محمد علي وأبنائه في حكم مصر وراثيا وتمتعهم بسلطات تفوق سلطات الولاة العثمانيين الآخرين ، كما نص على كون والي مصر من رعايا السلطان وأفضاله وعلى أن جيش مصر جزء

لا يتجزأ من الجيش العثماني وحدد عدد قواته بما لا يزيد على ١٨٠٠٠ مقاتل في أوقات السلم وعلى أن يرسل الوالى سنويا ارسالية مالية الى استانبول وأن تطبق القوانين والمعاهدات العثمانية على مصر باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وعلى أن يقلد كل والى منصبه وخلعه شخصيا في العاصمة العثمانية وأن تسك نقود مصر وتجبى ضرائبها باسم السلطان . على أن استقلال مصر الذاتى رغم كل ذلك كان كاملا بحيث مارس الولاة سلطة تامة على المصريين في شئون الادارة والضرائب والدفاع والتشريع . وعلى أى حال فان تسوية عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ التى حددت وضع مصر الدولى بهذا الشكل قد توصلت الى حل وسط ارضى رغبات جميع الأطراف . فالباب العالى لم يعترض على حق الوراثة طالما بقيت مصر فى نطاق الامبراطورية العثمانية وفرضت حدود على سلطة واليها ، أما الدول العظمى التى ضمننت سريان التسوية فانها حافظت على تمامية أملاك السلطان . دون أن توصل الباب أمام التغلغل الاقتصادى الأوروبى ، كما أصبحت بمثابة حكم بين مصر والدولة العثمانية وبالتالي اكتسبت حق التدخل فى شئون كلا الطرفين ولو أنها لم تحل دون تطلع كل الأطراف الى اكتساب مزيد من المزايا : فحق الحكم الوراثى كان يشجع ولاة مصر على التطلع الى الاستقلال التام فى الوقت الذى سعى فيه الباب

العالى الى تقليص الامتيازات التى حصلت عليها مصر متى
ما سنحت الفرصة •

وبعد هزيمة مصر فى أوائل الأربعينات اتقلت بالتدريج من
حيز القوة الى حيز الضعف ومن الاستقلال الواقعى الى
الخضوع لاستانبول •

وقد أحس محمد على بهذا التغير فاهتم بمقاومة اتجاه كل
من بريطانيا وفرنسا للتدخل فى شئون البلاد - ولما كان يخشى
الاحتلال البريطانى باستمرار فقد تعاون مع الحكومة الفرنسية
فى تحصين سواحل مصر الواقعة على البحر المتوسط ، كما
زاد أعداد جيشه فوق الحد الذى سمحت به التسوية وذلك
حتى لا تحاول الدولة العثمانية إلغاء الامتيازات التى حصلت
عليها مصر • ولكى يؤكد استقلاله الذاتى فانه استولى على
المواصلات البرية والنيلية التابعة للبريطانيين ووضعها تحت
الإدارة المصرية • وحين عرض عليه مشروع قناة السويس تردد
فى تنفيذه خوفا من اغضاب بريطانيا وأصر على أن يكون المشروع
مصريا بحيث يكون رأس المال محليا ويكون الفنيون فى خدمة
الحكومة المصرية ، كما تحدث عن حياد مصر باعتباره شرطا
أساسيا لتنفيذ المشروع الذى أشار الى كونه ذا أهمية بالنسبة
الى أوروبا بوجه عام • وقد علمته تجاربه الطويلة أن لا جدوى
من الاعتماد على فرنسا أو على أى دولة أوروبية عظمى أخرى

وأن مقاومة النفوذ العثماني أسهل كثيرا من مقاومة نفوذ
انجلترا وفرنسا وبالتالي فقد عدل موقفه من استانبول وحسن
علاقاته بالسلطات العثمانية باعتبار ذلك وسيلة لمقاومة الضغط
الغربي .

وبعد أن اختلط عقل محمد علي تولى ابنه ابراهيم الحكم ،
وحين توفي تولى عباس الأول حفيد محمد علي الذي اتصف
بالقسوة والتعصب ، خاصة وأنه كان الوحيد من أبناء محمد علي
وأحفاده الذي لم يتلق تعليما عصريا ولم يدرس أى لغة أوروبية
أو يقوم بزيارة أوروبا ، وبالتالي فانه لم يتذوق الحضارة
الغربية ولم يد أى احترام لأساليب حياة الأوروبيين ، واتجه
الى القضاء على كل مظاهر النفوذ الأوروبى وتوثيق علاقات مصر
بالباب العالي خاصة وأنه كان يمقت تسامح جده مع
الأوروبيين . ونتيجة لكل ذلك فقد عادت العلاقات بين مصر
والدولة العثمانية الى ما كانت عليه قبل موقعة نافارينو
(١٨٢٧) ، خاصة وأن عباس كان يرى أن مصر ليست سوى
ولاية صغيرة تابعة للدولة العثمانية وليست امبراطورية كما كان
الحال فى عهد جده وبالتالي فانه آمن بضرورة تمشى مؤسساتها
ونظمها مع مساحتها ودخلها (٢) مما يفسر كثيرا من الاجراءات

(٢) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الملف ٨٤٢/٧٨ نسخة من رسالة
دكتور برونر طبيب عباس الى مستر أبرتون بتاريخ ٩ يناير ١٨٥١ .

التي اتخذها مثل بيع الأسطول وتسريح الجيش واغلاق
المصانع وتقليص التعليم - الى غير ذلك .

وفي ديسمبر ١٨٤٨ بارح عباس مصر الى استانبول لكي
يتسلم فرمان توليته ويحضر في الباب العالي الاحتفال الخاص
بتنصيبه راليا . ورغم أن السلطان عبد المجيد استقبله استقبالا
حسنا واغدى عليه امارات التشريف فقد كان الباب العثماني
أميل الى تقليص صلاحيات الاستقلال التي تمتع بها محمد علي
وأبدى استعدادا للإشراف المباشر على شئون مصر (٣) .
وبعد عودة عباس الى مصر طلب منه أن يرسل ٢٠٠٠ رجل لكي
يعملوا في الأسطول العثماني مما أدى الى توقف العمل في
القناطر الخيرية والشك في استكمال المشروع (٤) .

وقد شجع الموقف الداخلي في مصر الباب العالي على
التدخل في شئونها . فرغم أن عباس لم يرتكب في أوائل حكمه
ظلما أو يهبطن القسوة فقد أثار كراهية الأوروبيين والعرب
والأتراك خاصة وأن معظم الموظفين لم يكونوا يقبضون مرتباتهم

(٣) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الملف ٨٠٤/٧٨ - رقم ١٩ من
مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٤٩ .

(٤) نفس الملف ، رفا ٢١ و ٢٤ من مرى الى بالمرستون بتاريخ ١٩
و ١٩ ابريل ١٨٤٩ . في يونية ١٨٥٠ زار عباس السلطان في جزيرة رودس
وحين عاد الى مصر كان شديد السرور لأن عبد المجيد استقبله استقبالا
حسنا (الملف ٨٤٠/٧٨ رقم ١٨) من جليبرت الى بالمرستون بتاريخ ١٧/٦/١٨٥٠ .

لأن الخزانة كانت خاوية - وقيل ان عباس استولى على الجزء الأكبر من ثروة محمد على الخاصة وعلى مجوهرات بناته مما دفع أعضاء الأسرة الحاكمة في مصر الى الشكوى الى استانبول . وكان أنصار فرع ابراهيم يأملون في استبدال الحاكم لصالحهم وتعلقت آمالهم بالأمير أحمد أكبر أبناء هذا الفرع الذي كثر الحديث عن مطالبته السابقة بالحكم وعن الأموال الضخمة التي كان بإمكانه الاتفاق منها للحصول على رضى الدول العظمى . وبالإضافة الى مصاعب عباس هذه فان فرنسا كانت تكن له العداء بعد أن ألغى كثيرا من المؤسسات التي كان يشرف عليها فرنسيون - وكانت فرنسا تأمل أن يؤدي تغيير الحاكم الى خدمة المصالح الفرنسية خاصة وأن الأمير سعيد ابن محمد على والأمير أحمد بن ابراهيم اللذين كان مقيضا لهما أن يخلفا عباس طبقا لنظام وراثة العرش وفقا لقاعدة الأكبر فالأكبر الذي وقعت عليه التسوية قد تلقيا تعليمهما في فرنسا وكان من المتوقع أن ينحازا الى جانبها (٥) .

وقد انعكست الصعوبات التي واجهها عباس في النزاع الذي ثار بينه وبين الباب العالي (١٨٥٠ - ١٨٥٢) حول تطبيق التنظيمات في مصر ، خاصة وأن هذا النزاع والاتهامات

(٥) الملف ٨٠٤/٧٨ - المكتبة رقم ٢٨ من مرقى الى المرستون بتاريخ

٧ مايو ١٨٤٩ .

التي وجهها الباب العالي الى الوالى قد تسببت في اضطراب البلاد . ونتيجة لخوف الوالى من نتائج ذلك فانه اتجه الى بريطانيا لكي تحميه خاصة وأنه كان قد أثار سخط فرنسا بعد أن طرد الفرنسيين من الادارة المصرية وأنه كان شديد الخشية لبريطانيا التي تسببت في هزيمة جده وكان لها أسطول قوى في البحر المتوسط . وقد راقب قنصل بريطانيا العام في مصر - مري Murray - الموقف العام في البلاد حتى قبل أن يبدأ

النزاع بين الوالى والباب العالي وحاول بالتدريج أن يوازن النفوذ الفرنسي الذي كان قويا جدا في عهد محمد علي ، وسعى الى انتهاز فرصة مبكرة لكي يبين له - بناء على اقتراح من لورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية - المزايا التي تعود على مصر من بناء سكة حديدية بين القاهرة والسويس (١) . وقد أبدى مري انزعاجه بوجه خاص من الجولات التي كان يقوم سليمان باشا الفرنسي في الدلتا حيث كان يتفقد التحصينات ويعززها وينظم ويدرب القوات التي جرى تجنيدها مؤخرا . وكان مري يشك في أن فرنسا لازالت تراودها أطماع خاصة بالاستيلاء على مصر خاصة وأن هذه التحصينات كانت قد

(١) نفس الملف رقم ٢ من مري الى بالمرستون بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٤٩ .

راجع أيضا :

Helen Rivlin, The Railway Question in the Ottoman — Egyptian Crisis of 1850 — 52 (Middle East Journal, Autumn, 1961).

بدأ تنفيذها في عهدى محمد على و ابراهيم وأن الخطط الخاصة بها قد وضعت في باريس . وكان مري يعتقد أن الهدف من اقامة هذه التحصينات هو تمكين الوالى اما من مقاومة السلطان أو من قطع المواصلات بين بريطانيا والهند (٧) . وقد أدى جزع مري الى قطعه الاجازة التى كان يقضيها في انجلترا وعودته الى مصر لكي يساند عباس في نزاعه مع الباب العالي خاصة وأنه كان يتمتع لديه بنفوذ أقوى مما كان يتمتع به ممثل أى دولة أوروبية أخرى أو مما يمكنه الحصول عليه لدى أى وال قد يخلفه (٨) .

يضاف الى هذا أن عباس بادر بعد نشوب النزاع بينه وبين الباب العالي الى ابداء حسن نيته ازاء انجلترا والى استنجاده بها ، ولهذا ذكر لوالن القائم بأعمال القنصلية العامة أنه حين تولى الحكم وجد كل ادارات البلاد في أيدي الفرنسيين وأنه بعد أن قلص نفوذهم عاداه قناصل فرنسا العموميون وغيرهم من الفرنسيين مما استتبع التشنيع عليه والشكوى منه الى استانبول والتحريض على خلعه لكي يحل محله أحد أفراد الأسرة من الموالين لفرنسا . وأبدى عباس اعتماده على مري لكي يحث الحكومة البريطانية على الدفاع عنه واصدار أوامرها الى سفيرها في استانبول - سير ستراتفورد كاتنج ، سير ستراتفورد

(٧) ٨٠٤/٧٨٠ - رسالة من مري الى بالمرستون مؤرخة ١٨٤٩/١٢/١٦ .

(٨) ٨٤١/٧٨ من مري الى بالمرستون بتاريخ ١٨٥٠/١٠/٩ .

دى ردكليف فيما بعد - لكى يسانده فى دوائر القصر السلطانى
والباب العالى ، مشيرا الى اهتمامه بالمواصلات البريطانية
صوب الهند وملمحا الى أنه بذل كل ما فى وسعه لتحسين ادارة
التراخيص ، واعتذر بالمصاعب المالية عن عدم مبادرته الى تنفيذ
مشروع السكة الحديد بين الاسكندرية والسويس ووعده بتنفيذه
متى ما ساعدته الظروف (٩) .

ورغم مساندة مري لعباس فلم يكن بالمرستون - وزير
خارجية بريطانيا - يعتقد أن التنظيمات ستضعف سلطة الوالى
فى مصر (١٠) . ولكن مري أبدى قلقه حين قرر الباب العالى
أن يحرم عباس من حق اعدام المجرمين ، وذلك لاعتقاده بأن حق
الاعدام سيساعد على استقرار الهدوء فى مصر وتأمين البريد
والبضائع والركاب المتوجهين الى الهند عبر الصحراء خاصة
وأن مصر لم تكن مجاورة لعاصمة الدولة بحيث يتسنى نقل
المجرمين والمتظلمين اليها وارسال قوات السلطان بالسرعة
اللازمة لمساعدة السلطات المدنية اذا ما دعت للضرورة ، وأن مثل
ما طالب به عباس لم يطبق فى البوسنة وكردستان وأن محاولة

(٩) نفس الملف من والى الى مري بتاريخ ١٨٥٠/٩/٢٠ .

(١٠) ٨٤٢/٧٨ - ملحوظة من بالمرستون بتاريخ ١٨٥١/١/٢ على رسالتى

والى المؤرخين ١٩ ديسمبر ١٨٥١ .

تطبيقه في حلب ودمشق أدت الى سفك العسكرين لقدر من
الدماء يفوق ما كان يمكن أن يسفكه الحاكم المحلي في عدة
سنوات . أما عباس فقد طالب بحق الاعداد لا باعتباره من
حقوق السيادة ولكن باعتباره سلطة تفويض كان يمارسها
محمد علي و ابراهيم ويمارسه عباس ذاته حتى ذلك الوقت طبقا
لقرمان الوراثة ، وذهب الى أن هذا الحق الذي لم يسيء هو
استخدامه كفيل بالمحافظة على أمن مصر ورخائها ، وأن محاولة
حرمانه منه كان من نتيجة تفوذ أعدائه في استانبول الذين كان
يهمهم أن تختل أوضاع مصر بالصورة التي تؤدي الى خلعه ،
خاصة وأن حق القصاص لم يحرم منه حتى ذلك الوقت حاكم
الحجاز الذي لم يكن باشا وراثيا ولا يمكن مقارنة حكومته
بمصر لا من حيث الحيز أو السكان أو الأهمية (١١) .

وفي ١٨ يناير ١٨٥٢ استدعى عباس القناصل العموميين
الذين كانوا يمثلون الدول الخمس الموقعة على تسوية
١٨٤٠ - ١٨٤١ وشكا لهم من نوايا الباب العالي واستطرد
قائلا ان جيوش الدول الأوروبية لا جيوش تركيا هي التي فرضت
على محمد علي الوضع القائم وأنها لذلك ملزمة أديبا بأن
تعمل على تطبيق التسوية . ولم يبد ممثلو فرنسا والنمسا وروسيا
بروسيا تعاطفهم مع عباس الذي اعتبروه منحازا الى مصالح

(١١) ١١٦/٧٨ (رقم ١) من مري الى جرانفل بتاريخ ١٦/١/١٨٥٢ .

بريطانيا التجارية خاصة وقد بدأ في تنفيذ مشروع السكة الحديدية دون أن يستشيرهم . وصرح له قنصل فرنسا العام بأنه لو استدعى السلك القنصلى قبل بضعة شهور وأبدى ثقته به وطلب النصيح والمساعدة من جانب القناصل لربما أدت مساعيهم لدى حكوماتهم الى التأثير فى قرارات الباب العالى والى الحيلولة دون صدور القرار الأخير . وكان قد سبق لمرى أن وجه نظر عباس مرارا انى ضرورة تقوية صلاته بالقناصل الآخرين وطلب نصيحهم فيما يتعلق بعلاقاته بالباب العالى ولكن الوالى رفض ذلك بحجة أن قنصلا أو قنصلين كانا على علاقة أوثق بأفراد أسرته الآخرين من علاقتهما به وبأن القناصل حين كانوا يزورونه كانوا يستشيرون غضبه بتناول موضوع واحد دون لباقة أو شفقة وهو عدم ميله الى مجتمعاتهم واتجاهه العام صوب بريطانيا (١٢) .

ومهما كان الأمر فقد أحيطت الدول الخمس الموقعة على تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ بموضوع التنظيمات فى نفس الوقت الذى لقى فيه عباس مساندة عناصر معينة فى مصر - فقد أرسلت الى مرى عريضة وقعها بعض تجار الاسكندرية والقاهرة وبعض المواطنين المهمين الآخرين وتضمنت احتجاجهم على قرارات الباب العالى ورغبتهم فى المحافظة على حقوق الوالى وعلى أمن

(١٢) نفس الملف - رقم ٢ من مرى الى جرانفل بتاريخ ١٦/١/١٨٥٢ .

البلاد (١٣) • ولكى يعزز معهم عباس مركزه فانه أطلع مري على رسالة أرسلها اليه لويس نابليون - رئيس الجمهورية الفرنسية - وأبدى فيها استعدادة لمساندة الوالى فى استانبول فيما لو أعاد وضع فرنسا الى ما كان عليه قبل تولي عباس الحكم حين كانت كل المناصب الهامة فى أيدي فرنسيين وحين كانت شئون مصر تدار من باريس (١٤) • وكتب مري الى كاتنج مدافعا عن عباس وذاهبا الى أن المشكلة كلها لا تعدو كونها سوء تفاهم تسبب فيه أعداء عباس فى استانبول وأن مصالح بريطانيا تكمن فى مساندته (١٥) •

وفى استانبول انضم سفيرا روسيا والنمسا الى كاتنج وقام الجميع بمساندة عباس ولو أن السفير الفرنسى كان على عكس ذلك (١٦) فحاول أن يظهر الوالى بمظهر المتمرذ على سيده مستهدفا بذلك خلقه خاصة وأن فرنسا كانت تستند فى مصر الى « الحزب الفرنسى » أى الى أمراء الأسرة الحاكمة المعروفين باسم « أبناء فرنسا » ومن التفوا حولهم • وكان كل أولئك يشدون أزر الأتراك الساخطين الذين سبق أن فصلوا من خدمة

(١٣) نفس الملف - نسخة رقم ٤ بتاريخ ١٨٥٢/١/٢٤ •

(١٤) نفس الملف - رقم ٥ من مري الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/١١/٢٥ •

(١٥) نفس الملف - نسخة رقم ٥ من مري الى كاتنج بتاريخ ١٨٥٢/٣/٦ •

(١٦) نفسه - رقم ٨ من مري الى جرانفل بتاريخ ١٨٥٢/٢/٤ •

الحكومة (١٧) . وقد أكد عباس لمري أن سعيد باشا ابن محمد علي وولي العهد قد وقع خطابا التزم فيه ، في حالة توليه العرش ، بقبول التنظيمات في مجموعها وبالتنازل عن حق القصاص ونطاعة الباب العالي في كل الأمور . ورغم أن مري كان يشك في صحة هذا الخطاب الا أنه كان يرى أن نجاح المؤامرة الهادفة الى تولية سعيد سيؤدي الى انهيار مصر نتيجة لمطالب الباب العالي واسراف سعيد أو سينتبع وقوعها تحت الحماية الفرنسية المباشرة مما يلحق بالمصالح البريطانية أفدح الأضرار (١٨) . وحين طلب عباس زيارة سفينتين بريطانيتين الى الاسكندرية نصح مري وزارة الخارجية البريطانية بتلبية طلبه حتى لا تتعرض البلاد لانتقال سياسي خاصة وأن نوبار - سكرتير الوالي وترجمانه - بعث برسالة الى مري ذهب فيها الى أن رشيد باشا (الصدر الأعظم) قد وعد سفير فرنسا في استانبول بخلع عباس في حالة مساندة الحكومة الفرنسية له (١٩) (أى الصدر الأعظم) (٢٠) .

(١٧) ١١٦/٧٨ - رقم ٢٥ مري الى مالمسيورى بتاريخ ١٨٥٢/٦/٢ .

(١٨) نفس الملف - مسودة نسخة رقم ٦ من مري لكاتنج بتاريخ

١٨٥٢/٣/٢٧ .

(١٩) نفس الوثيقة السابقة .

(٢٠) نفس الملف - نسخة (بالفرنسية) من رسالة من نوبار الى مري

بتاريخ ١٨٥٢/٣/٢٦ .

وعلى أى حال فقد ساندت بريطانيا عباس فى العواصم الأوروبية الكبرى فى الوقت الذى أرسل فيه الباب العالي قواد أفندى الى مصر . وكان الهدف السرى من بعثة قواد هو اكتشاف القوة النسبية للأحزاب فى مصر وإذا ما وجد حجة لخلع عباس عليه أن يستوثق مما اذا كان من العملى فرض الطاعة لفرمان يتضمن تولية سعيد رئيس الحزب الفرنسى أو حزب الأسرة الحاكمة ، على أن يقوم فى حالة ادراكه أن نجاح مثل هذه المحاولة أمر غير محتمل بالعودة الى استانبول بعد أن يؤكد لعباس دلائل الصداقة والتقدير (٢١) .

ووصل قواد الى مصر فى أوائل ابريل ١٨٥٢ ، وحين أبدى المبعوث التركى قدرا من التعقل هدأت كل مخاوف عباس الذى أبدى أنه لن يعترض على حقوق سيده وأنه لا يفكر فى الاستقلال أو فى تحدى الباب العالي - وما يدل على ذلك أنه قدم للخزانة التركية مبلغ ثلاثة مليون جنيه تركى لم يخصمها من الخراج (الويركو) المستحق على مصر بل انه دفع قيمة خراج عام ١٨٥٢ الى بنك سينا فى فينا باعتبارها ضمانا للقرض الذى تعاقده عليه مع بنك الحكومة فى استانبول ، وكل ذلك مما ينفى رغبة الوالى فى اعلان استقلاله (٢٢) . وازاء كل ذلك وافق

(٢١) نفس الملف - رقم ١٠ من مرمى الى مالمسبورى بتاريخ

٢٠ مارس ١٨٥٢ .

(٢٢) نفس الملف - رسالة من هيروز الى مالمسبورى بتاريخ ١٤/٤/١٨٥٢

قواد على أن يمنح عباس حق الحياة والموت لمدة ست سنوات فيما اذا كان القتيل لم يترك ورثا . وقد طالب عباس بثمانى سنوات بدلا من ست ، وأمكن فى النهاية التوصل الى حل وسط فسمح لعباس بسبع سنوات بعد أن وعد بأن يرسل لاستانبول كل حيثيات القصاص (٢٣) . وبعد التوصل الى حل لمشكلة القصاص انتقل قواد - الذى كلف بالتوسط بين أفراد الأسرة الحاكمة وبين عباس (٢٤) - الى مسألة ميراث محمد على . وكانت هذه المسألة حساسة وغامضة بحكم أن الأسرة كانت تطالب بكل مصر التى لم يبق أمامها سوى الافلاس (٢٥) .

على أن هذه المسألة الأخيرة كانت ثانوية اذا ما قورنت بمسألة التنظيمات التى اتفق حولها الرأى برغم ما اتضح من فحوى المراسلات من أن بعض الوزراء لم يتوخوا العناية فى دراسة مسألتى التنظيمات والقصاص من حيث تطبيقهما فى مصر بوجه خاص وفى البلدان الشرقية بوجه عام - إذ ان سيف العدالة فى هذه البلدان هو رمز السلطة وسرعة عقاب المجرمين هى الأسلوب العملى الوحيد لقمع الاضطرابات والقلق التى يثيرها البدو

(٢٣) نفس الملف - وقما ١٦ و ١٨ من مرمى مالمسبورى بتاريخ

١٨٥٢/٥/٣ و ٤/١٧ .

(٢٤) نفس الملف - رقم ١٤ من مرمى الى مالمسبورى بتاريخ ١٦/٤/١٨٥٢ .

(٢٥) نفس الملف - رقم ١٩ من مرمى بتاريخ ١٨/٥/١٨٥٢ .

القاطنون في الصحارى المجاورة لوادى النيل • الا أن قواد تناول المسألة بمهارة حققت كل أهداف الباب العالى اذ ان منح عباس حق القصاص لمدة سبع سنوات كان اجراء نظريا - فاذا ما نقلت كل حيثيات الحكم الى استانبول كان يسهل جدا أثناء مراجعتها أن توجد ثغرات من شأنها أن تثير نزاعات خطيرة ، وكان خطأ عباس أنه خلال مفاوضاته مع قواد لم يقم باستشارة مرى أو أى قنصل عام آخر (٣٦) •

ومهما كان الأمر فقد عادت العلاقات بين عباس والباب العالى الى ما كانت عليه قبل احتدام النزاع • وحين نشبت حرب القرم أبدى عباس استعدادا لاظهار ولائه للسلطان بوضع قوة برية وبحرية تحت تصرفه (٣٧) وجرت استعدادات فى الاسكندرية لتجهيز السفن والرجال وذلك رغم أن اهمال الأسطول منذ توليه الحكم قد جعل السفن غير صالحة للنزول الى البحر أو القتال • أما البخارة فقد أخذ عدد كبير منهم من المصانع والسكة الحديدية التى كان يجرى العمل فيها وأرسلوا الى الترسانة أو الى السفن • وجرى تشجيع الجنود على التطوع بنفس الأسلوب (٣٨) •

(٣٦) نفس الملف - رقم ٢٢ من مرى الى الملبورى بتاريخ ١٨٥٢/٥/٢٠ •

(٣٧) نفسه - وزارة الخارجية الى جون جرين بتاريخ ١٨٥٣/٧/٥ •

(٣٨) ١١٩/٧٨ - رقم ٢ من جون جرين الى ستراتفورد دى ردكليف

بتاريخ ١٨٥٣/٦/٢٢ •

وفي ٢٠ يولييه ١٨٥٣ بدأ تحرك انسفن والقوات • وأبدى
المصريون المسلمون الذين أثارتهم الاستعدادات الحربية
والأخبار التي أيقظت مشاعرهم الدينية بعض التعصب الذي كانت
له آثار سيئة ، رغم أنهم لم يقوموا بما يتعدى الكلام ، ولو أن
احتدام المشاعر هذا أدى الى مقتل أو جرح بعض الرعايا
البريطانيين رغم الاجراءات المتشددة التي اتخذتها الحكومة
المصرية لقمع النزعات التعصبية لدى السكان ولو أن هذا لم
يهدىء روع المسيحيين المشاركة في حين أن احتدام مشاعر السكان
الأوروبيين أدى الى توقع أعمال العدوان منهم لا من
المسلمين (٢٩) • وبالإضافة الى ذلك فقد جرى سحب الأقباط
المجندين في الجيش النظامي من الخدمة العسكرية ووضعهم في
أعمال السكة الحديدية (٣٠) •

ورغم ذلك فإن الأحوال الداخلية للبلاد ككل كانت هادئة
لصرامة الحكومة (٣١) خاصة وأن المنافسة بين إنجلترا وفرنسا
قد غطى عليها انضمام الدولتين الغربيتين الى الدولة العثمانية
ضد روسيا • وبالإضافة الى ذلك فقد جرى نقل مري الذي أدت
علاقته الشخصية بعباس الى غضة الطرف عن مساوئ سياسته

(٢٩) نفس الملف - رقم ٥ من جرين الى كلارندون بتاريخ ١٣ أغسطس

• ١٨٥٣

(٣٠) نفس الملف - من جرين الى أدنجتون بتاريخ ٨ أغسطس ١٨٥٣ •

(٣١) نفس الملف - رقم ١٤ من جرين الى كلارندون بتاريخ ١٦/٩/١٨٥٣ •

الداخلية • وأرسلت تعليمات الى القنصل البريطاني العام
انجديد - بروس - لكي يقيم علاقات طيبة مع زميله الفرنسي
- ساباتيه - مع لفت نظره الى أن محاولات الايقاع بينهما
يمكن تلافيها بالاتصال المباشر والعمل المشترك • وجرى توجيه
نظر بروس الى ضرورة لفت نظر الباشا الى أن الحكومة
البريطانية لا ترغب في الحصول على نفوذ سياسى أو فى الاتفراد
بالنفوذ فى مصر أو تعكير العلاقات القائمة بين السلطان والوالى
ولو أنه يحق لها أن تتوقع تطبيق المعاهدات وتمتع رعاياها
بالعدالة المطلقة • كما وجه نظره الى ضرورة انتهاز كل الفرص
ليؤكد للباشا أن انجلترا لا ترغب الا فى أن تتمتع مصر بالرخاء
والتقدم وأن تظل بمثابة الطريق الى الهند وأنه طالما يحافظ
على سلامة هذا الطريق يكون جديرا بصداقة الحكومة البريطانية
ومساعدتها (٣٣) •

ويبدو أن الحكومة البريطانية أدركت نتيجة للعمل المشترك
مع فرنسا ضد روسيا مدى ضرور المنافسة القديمة بين الدولتين
وهى المنافسة التى أدت الى خلق حزين فى مصر يعتمد أحدهما
على الموظفين الفرنسيين فى الحكومة المصرية الذين كانوا يسعون
الى اقناع الوالى بأن كل اصلاح تبناه انجلترا لا يهدف الا الى

(٣٢) ١٠٣٤/٧٨ - رقم ١٦ - وزارة الخارجية الى بروس بتاريخ

• ١٨٥٤/٣/٣١

التمهيد للاحتلال البريطاني • أما الحزب الآخر الذي كان يقوم على المؤيدين النفوذ البريطاني فلم يدخر أنصاره وسعا في تشويه أى خطوة يخطوها ممثل فرنسا للدفاع عن حقوق ومصالح الرعايا الفرنسيين • ونتيجة لهذا الوضع كان الوالى يشك في كل ما يقترح عليه بصدد إدخال الاصلاحات على ادارته الداخلية ويبالغ في الأهمية المضافة على ابداء الصداقة وحسن النية له مستغلا ذلك في الاساءة الى الأشخاص والسعى الى احياء نظام الاحتكار •

لكل ذلك اعتقد بروس أن حسن التفاهم والصراحة مع قنصل فرنسا العام من شأنهما أن يؤديا الى وضع حد للمؤامرات التى ألحقت الضرر بالاصلاحات • ولهذا لفت نظر ساباتييه الى ضرورة اتحاد انجلترا وفرنسا فى اقناع عباس بالقضاء على كل أسباب الشكوى المترتبة على سوء ادارته واهماله والتخلي عن نظام الاحتكار الذى كان يعود اليه بالتدريج • وكان رد ساباتييه أنه يقر خطأ سابقه الذين كانوا يسعون الى اكتساب النفوذ مما أدى الى أسوأ النتائج وأنه يجب مشروع السكة الحديدية الذى زكاه لدى الوالى • ولكنه أشار الى الميزات الممنوحة لشركة بنسولار وأورينتال دون غيرها مما كان يشكل خرقا للمعاهدة المعقودة بين الباب العالى وفرنسا التى منحت بمقتضى هذه المعاهدة على وضع الدولة الأولى بالرعاية • وأقر

سأبأتيه أن مصالح إنجلترا تفوق مصالح فرنسا وأبدي استعداداً للقيام بعمل مشترك لحفز الإصلاح . ثم أكد بروس لسأبأتيه أن الحكومة البريطانية لا تسعى إلى احتكار النفوذ في مصر بل كل ما يهملها هو تحسين المواصلات إلى الهند عبر مصر وإصلاح إدارة البلاد وأن من واجب فرنسا أن لا تغار أو تشك في ذلك وكان يجب تضامن الدولتين الغربيتين الذي من شأنه أن يرغم الوائى على التخلي عن مشروعاته الاحتكارية وعلى إصلاح إدارة البلاد (٣٣) . وحين لمس عباس هذا التضامن عاد إلى توثيق علاقته بالباب العالي مما أضعف نفوذ ممثلى الدول الأوروبية الذي نتج عن سوء علاقته بالباب العالي مما جعل بروس يؤجل إثارة الشكاوى إلى ما بعد انتهاء الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا (٣٤) .

وأرسل عباس ... جندى إلى تركيا وخطب ابنة السلطان عبد المجيد إلى ابنة الهامى وطلب من الباب العالي أن ينعم عليه بلقب « العزيز » وراوده أمل في تعديل نظام وراثة العرش لصالح ابنة الهامى (٣٥) . على أن كل ذلك لم يتمخض عن شىء نتيجة لوفاة عباس المفاجئة في ١٣ يولية ١٨٥٤

(٣٣) ١٠٣٥/٧٨ - بروس إلى كلارندون بتاريخ ١٦/٣/١٨٥٤ .

(٣٤) نفسه - نسخة رقم ٦ من بروس إلى ردكليف في ١٥/٣/١٨٥٤ .

(٣٥) نفسه - رقم ٣٦ من بروس إلى كلارندون بتاريخ ١٢ أغسطس .

وهي الوفاة التي يرجح أنها كانت نتيجة أزمة عصبية (٣٦) مرتبطة بقلقه بصدد تعديل نظام وراثة العرش واحتمال انهيار الامبراطورية العثمانية وطمعه في اتخاذ لقب الخلافة .

وقد سعى أنصار عباس الى تأخير تولي سعيد الحكم الى أن يمكنهم التآمر في عاصمة الدولة لضمان الحكم لالهامي .
الا أن قنصلي بريطانيا وفرنسا تدخلا تنفيذا لشروط تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ بالصورة التي ضمنت العرش لسعيد .

وكان سعيد حين تولي الحكم في الثامنة والثلاثين من عمره وكان يتقن اللغتين الانجليزية والفرنسية كما كان معروفا بميله الى فرنسا . وقد رحب كل سكان مصر بتولييه الحكم بسبب سخطهم على عباس الذي أرغم الكثيرين على العمل في بناء قصوره وتنفيذ مشروعاته الأخرى واصطنع القسوة في تشغيلهم ، هذا الى بخله . واستهل سعيد حكمه بالصفح عن الاساءات التي تعرض لها هو وأبناء ابراهيم وبارسال رسالة ودية الى الهامي وتصريحه بأنه لن يميل الى فرنسا أو لانجلترا بل سيكرس جهوده لتحقيق رخاء مصر .

ومهما كان الأمر فقد آذن عهد سعيد بفترة كان مقيضا لها أن تلحق أبلغ الضرر بمصر وسكانها .

(٣٦) نفسه - رقم ٣٥ بتاريخ ١٨٥٤/٧/١٧ ورقم ٣٩ أصلاه - وكلاهما

من بروس الى كلارندون .

الموضوع الثانى

انهيار نظام الاحتكار فى مصر

بعد عام ١٨٤١

يسجل عهد محمد على نهاية العزلة التي خيبت على مصر في أعقاب الكشف الجغرافية والفتح العثماني كما يسجل انخراطها في الاقتصاد العالمي . فلقد شهد حكم محمد على بداية انتقال مصر من الاقتصاد المغلق الى الاقتصاد المفتوح وتميز بسيطرة الدولة على القسط الأكبر من النشاطات الاقتصادية (١) . فما أن تخلص من أخطر خصومه السياسيين - أي المماليك - في عام ١٨١١ حتى بدأ يطبق نظام الاحتكار الذي ما لبث أن شمل كل نشاطات مصر الاقتصادية : فقد وضع يده على معظم أراضي البلاد وسيطر على اقتصادها (٢) وصناعاتها ، وذلك بعد مصادرتها للأراضي التي منح مساحات كبيرة منها لأبنائه وأقاربه وضباطه .

(١) حسين خلاف : التجديد في الاقتصاد المصري الحديث (القاهرة)

(١٩٦٢) ص ٤ - ٥ .

(٢) أشار كلوت بك . (Aperçu général sur l'Egypte, II, P. 198) الى ان نظام الاحتكار لم يكن يطبق على كل منتجات مصر ، فقد كانت توجد كثير من السلع - ومنها معظم الحبوب - التي كان الفلاحون يتمتعون بحرية التصرف فيها .

ولم يخضع توزيع الأراضي هذا لأي قانون بل كان وليد مزاج الباشا ولم يصحبه أي تحرر عن كان يمتلك هذه الأراضي في عهد البكوات المماليك الذين قضى عليهم أو اضطربهم إلى الهجرة ، ويبدو محمد علي افترض أن كل الأراضي التي لا يوجد لها مالك فعلى أصبحت تابعة للحكومة ، وبالتسالي فإنه فرض عليها نظام الالتزام أو قام بتوزيعها أو بزراعتها لحسابه الخاضع بالشكل الذي يعود عليه بأقصى ربح ممكن (٣) . ولقد عانى الفلاحون العاملون في هذه الأراضي من مختلف الصعوبات وهبط مستواهم حتى أصبحوا في وضع شبيه بأقنان الدولة بحيث هاجر عدد كبير منهم من قراهم أو من مصر . كما ضيق نظام الالتزام على الصناعات وبخاصة اليدوية منها وقضى على ما تبقى لها من روح المبادرة الحر (٤) .

أما التجارة فكانت تتم إما عن طريق الالتزام أو احتكار الحكومة ، وكانت تجري إدارتها بالصورة التي تعود على الوالي بأقصى ربح ممكن : فكان يصدر فرمانات تنص على بيع سلعه للتجار الذين يفضل التعامل منهم ، كما كان يعتمد على رفع الأسعار بشتى الوسائل مما أدى إلى شلل التجارة المحلية .

(٣) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - الملف ٣٦٥/١٩٥ - الوثيقة رقم ١٠ من مري لى كاتنج بتاريخ ١٨٥٢/٤/٢١ .

(٤) راجع : على الجريتل : تاريخ الصناعة في مصر (القاهرة ١٩٥٢) - أيضا : Issawi, Egypt in Revolution (London, 1963), P. 43.

وفي عام ١٨١٨ كان تسعة أعشار التجار من المغامرين الأجانب الذين بدأوا نشاطهم دون رأسمال يذكر - فلدى وصولهم الى البلاد كانوا يقيمون علاقات مع أحد رجال خاشية الباشا ويطلبون منه أن يصدر لهم فرمانا يمنحهم كمية معينة من الحبوب التي يدفع ثمنها بعد مرور عدة أشهر على استلامها ، وهذا الثمن كان يساعدهم على الاتجار الذي تعززه صلاتهم ببعض رجال الحكومة (٥) . وكان بإمكان هذه القلة من التجار المحظوظين من ايطاليين ويونانيين ، أن يقدموا لمحمد على قروضا مالية كان بعضها بمثابة عربون لثمن الحبوب المتوخى تقديمها (٦) . ومما أدى الى تغيق احتكارات الحكومة تدخل قناصل الدول الذين كان عدد كبير منهم وكلاء للوالي وكانوا يمارسون تجارة واسعة النطاق عادت عليهم بأرباح طائلة (٧) .

وقد طبق نظام الاحتكار على البلدان الأخرى التي امتدت اليها سلطة الوالى ، وكان من الصرامة فى السودان بحيث توقف السكان عن احضار سلعهم الى الأسواق . وفرضت الحكومة ضرائب على نقل المنتجات من مكان الى آخر مما عرقل الحركة

Helen Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammed Ali in (٥) Egypt, P. 175.

(٦) وثائق وزارة الخارجية البريطانية - بارنت الى كاتنج فى أول ديسمبر ١٨٤١ .

(٧) محمد فؤاد شكرى وزميله ، بناء دولة - مصر محمد على

(القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٤٠٢ .

التجارية - اذ لم يستثن من احتكارات الحكومة سوى العبيد . وفي كريت جرى احتكار الزيت (٨) ، وفي الشام طبق نظام الاحتكار بوجه عام وبخاصة على الحرير . وكان هذا النظام من أهم العوامل التي جعلت محمد علي يسعى الى التوسع في شبه الجزيرة العربية خاصة وأن رغبته في احتكار البن دفعته الى ارسال حملة الى اليمن (١٨٣٣ - ١٨٣٨) (٩) . وأدى كل ذلك الى اضمحلال تجارة الترانزيت بين افريقيا وشبه الجزيرة العربية (١٠) .

وقد جنى محمد علي أرباحا طائلة من الاحتكار الذي كان الركيزة الأساسية لسياسته المالية وأداته لتجهيز جيشه وأسطوله والانفاق على حملاته الحربية . وفي ظل هذا النظام الاحتكاري أصبح محمد علي في الواقع هو الوحيد الذي يمسك بزمام حركة التصدير في مصر ، اذ كان ما مقداره ١٦/٢ من تجارة الصادر حكرا عليه ، ولكن لم تكن له سيطرة مشابهة على الواردات - فقد كان يخضع للتعليمات الواردة في مرسوم سلطاني كان ينص على أن اتفاقا دوليا قد تم التوصل اليه بين الباب العالي والتجار الأجانب الذين حصلوا على حق ادخال

(٨) زينب عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصري (القاهرة ١٩٦٤) .

(٩) بناء دولة ، ص ٥٥ - ٧٠ .

(١٠) خلاف ، ص ٣٤٥ .

سلعهم الى كل أرجاء الممتلكات السلطانية بشرط رفع رسم استيراد قدره ٢٪ ، وكان تطبيق هذه القاعدة يوفر للتجار الأجانب مركزا متميزا بحكم أنهم كانوا يدفعون رسوما أقل مما يدفعه الرعايا العثمانيون من مسلمين وغير مسلمين . على أن محمد علي كان أكبر مستورد في البلاد والدليل على ذلك أن ٤٠٪ من واردات عام ١٨٣٦ كانت لحساب الحكومة (١١) .

وقد تطور نظام الاحتكار الذي فرضه محمد علي في الوقت الذي كانت فيه التجارة الحرة قد وطدت أقدامها في أوروبا الغربية ، خاصة وأن ازدياد الإنتاج في بريطانيا قد استلزم محاولة الحصول على فرص تجارية متزايدة وجعل الحكومة البريطانية تسعى الى دراسة أحوال التجارة في شتى أنحاء العالم بهدف إعادة النظر في المعاهدات القائمة والحصول على أحسن الشروط للتجارة البريطانية (١٢) . وتمشى السلطان العثماني محمود الثاني مع اتجاهات بريطانيا بحكم أنه كان يسعى الى تدمير أكبر مصدر لدخل محمد علي بحيث يمكنه أن يززع قدرته على الاحتفاظ بجيش قد يهدد السيادة العثمانية على مصر وأملاكها ، فعرض على الدول الأوروبية أن

A.E Crouchley, The Economic Development of Modern Egypt. (London, 1938), PP. 88 — 9 (١١)

(١٢) رفلن ، ص ١٨٢ — ٣ — أيضا كروتشلى ، ص ٧٥ — ٧٦ .

يمنحها تنازلات واعفاءات جبركية وذلك بهدف إقامة العراقيل في وجه الوالي واضعاف علاقاته بالدول العظمى . وفي عام ١٨٣٤ أصدر فرمانا ينهى الاحتكارات الحكومية في الشام ، وفي ١٦ أغسطس ١٨٣٨ وقعت الاتفاقية الانجليزية - التركية (أو معاهدة بالطة ليمان) (١٣) التي كانت تهدف الى تحطيم الممارسات الاحتكارية في الامبراطورية العثمانية . وكان أهم ما نصت عليه هذه المعاهدة ما يلي :

١ - التبادل الحر للمنتجات .

٢ - منح الرعايا البريطانيين وضع الدولة الأولى بالرعاية وتمتعهم بكل المزايا الممنوحة لرعايا الدول الأخرى .

٣ - تحديد الرسوم على الواردات بـ ٣٪ مع اضافة ٢٪ على القطاعى والغاء الضرائب الاضافية على الواردات .

٤ - تحديد الرسوم على الصادرات بـ ١٢٪ وأن يدفع المصدرون الأجانب ٣٪ منها .

وخين أحاط محمد علي بتوقيع معاهدة بالطة ليمان صرح بأنه سينفذ شروطها ، خاصة وأنه كان يدرك حاجته الى عطف

(١٣) يوجد نص الاتفاقية في :

J.C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East Princeton, 1956) I, PP. 110 — 11.

الدول الأوروبية التي كان يسعى إلى الحصول على مساعدتها
 له في صراعه المرتقب مع الدولة العثمانية . ولم يشترط إلا أن
 يتمتع التجار الانجليز عن مطالبة المزارعين بشراء المحصول قبل
 جنيه . على أن يتمكنوا من شرائه بسجود ثقله من الأرض ،
 كما سمح بأن يتمتع المزارعون بالحرية الكاملة في نقل محاصيلهم
 إلى السوق وأن يتصرفوا فيها كما يشاءون وأن يبيعوها لمن يقبل
 شرائها (١٤) . وبعد أن انتهى نزاع محمد علي مع الباب العالي
 صرح بأنه راغب عن الاحتكارات على اعتبار أنه مقتنع بأن
 حرية التجارة في مصلحته (١٥) . على أن القنصل البريطاني
 العام في مصر - الكولونيل بارنت - توقع أن يحاول
 محمد علي التهرب والتسويق وتأجيل تطبيق التجارة الحرة على
 مصر وذلك بوجود أشخاص يفيدون من استمرار الأوضاع
 القائمة نتيجة للنفوذ القوي الذي حصلوا عليه لدى الوالي الذي
 كانت مصلحته تتطابق مع مصالحهم (١٦) . وقد ثبتت صحة توقعات
 بارنت ، بحكم أن الوالي لم يكن على استعداد للاستغناء عن
 احتكاراته وأيدي رغبته في ابداء أقوى مقاومة ممكنة قبل أن يرغم
 بالتدريج على قبول شروط معاهدة بالطة ليமான والمعاهدات المماثلة

(١٤) دلفان ، ص ١٨٥ - ٦ .

(١٥) F.O. الملف ١٢/١٤٢ - الوثيقة رقم ٥ من بارت بتاريخ

١٩ أغسطس ١٨٤١ .

(١٦) نفس الملف ، رقم ١٨ من بارت بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٤١ .

الموقعة بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الأخرى (١٧) .

وكان اللورد بالمرستون ، وزير الخارجية البريطانية ، يعتقد منذ البداية أن الاحتكار لا تقل آثاره إذا ما امتد الى بلد بأسره بدلا من امتداده الى جزء من هذا البلد ، لأن هذا الاحتكار كان يفرضه الحاكم لمصلحته وحده بدلا من منحه لأشخاص معينين . وكانت الاحتكارات التي فرضها محمد علي على مصر ، لمصلحته الخاصة ، تتناقض مع المعاهدة نفس تناقضها فيما لو كان قد منحها ليستفيد منها أشخاص آخرون . وازاء استحواذ الوالي على مساحات واسعة من أراضي مصر فقد كان من رأى بالمرستون أنه ما لم يكن قد حصل عليها عن طريق الشراء فلا يمكنه الاحتفاظ بها الا اذا اعتبر حائزا لها باعتباره ممثلا لسيده السلطان لا باعتباره واليا لا يتعدى كونه أحد رعايا السلطان (١٨) . ومما يجدر ذكره أن معاهدة لندن الموقعة في عام ١٨٤١ كانت تنص على وجوب احترام كل المعاهدات التجارية التي عقدها الباب العالي مع الدول الأجنبية .

وقد قدم محمد علي المتجار بعض التازلات الصغرى حين

(١٧) بادرت الدول الاتية الى عقد معاهدات مماثلة مع الدولة العثمانية : النمسا - باجيكيا - فرنسا - عصبة الهانسا - سردينيا - السويد - النرويج - اسبانيا - هولندا - الدانمرك (بناء دولة ، ص ٥٩) .

(١٨) ملف وزارة الخارجية البريطانية ٧٨/٧٠٨ - بالمرستون الى كامبل في ١٢ أكتوبر ١٨٣٩ .

سمح لهم بالاتصال المباشر بالزلاحين وذلك رغم احتفاظه بحق تحديد سعر السلعة وشراء المنتجات بالسعر الذي يحدده ما لم يشتريها شخص آخر (١٩) . وفي أغسطس ١٨٤١ وجد بارنت أن معاهدة ١٨٣٨ لا تطبق وعزا ذلك الى عدم امتناع الأفراد عن تقديم الشكاوى الواضحة من الحكومة نتيجة لخرقها للمعاهدة اذ كان بعضهم يخشى اغضاب الوالى الذى كانوا يدينون له بثرواتهم ، فى الوقت الذى كان فيه آخرون يفضلون الوقوف موقفا سلبيا فى حين اعتقدت القلة الا فائدة على الاطلاق من القيام بأى تحرك وأن من الأفضل ترك الأمور تسير فى مجراها . لهذا كله صعب على بارنت أن يعثر على حالة محددة تمكنه من أن يبنى عليها شكواه (٢٠) . وهكذا استمر احتكار السفن التى تبخر على النيل وترعة المحمودية ، وازاء عدم السماح بامتلاك السفن واستئجارها فقد ثبت ألا جدوى من حرية شراء منتجات البلاد (٢١) .

وامتراك بارنت مع القنصلين العاملين الروسى والفرنسى وعدد غير قليل من التجار البريطانيين فى الاحتجاج على هذا الاجراء ، فوعده محمد على بالاستجابة لاحتجاجاتهم . وكان تعليق بارنت على ذلك وجوب مواصلة الضغط على الوالى قبل

(١٩) رفلن ، ص ١٨٦ .

(٢٠) بارنت الى كاتنج فى أول ديسمبر ١٨٤١ .

(٢١) بارنت الى كاتنج فى ٢٠ مارس ١٨٤٣ .

أن يتحقق ما يشبه حرية التجارة في مصر وأنه لما لم يشد الباب
العالي أزر بريطانيا بصدد تطبيق معاهدة ١٨٣٨ على مصر
فسيجد محمد علي باستمرار حججا لتصله من تطبيق بنود
المعاهدة التي تمس حقه في الاحتكار .

وردا على الاحتجاجات المتكررة التي تقدم بها بارنت الى
الوالي أكد محمد علي مرارا وتكرارا رغبته في الغاء الاحتكارات
بالتدريج وتطبيق حرية التجارة على مصر . وأشار الى صعوبة
اجراء تغيير مفاجيء على نظام استمر فترة طويلة وذلك رغم
استغلاله لمعاهدة ١٨٣٨ في رفع رسوم التصدير والاستيراد .
وحينئذ أبلغه بارنت أنه في حالة عدم الغاء الاحتكارات سيضطر الى
ابلاغ التجار البريطانيين بأنهم في حل من عدم دفع الرسوم
الاضافية على التصدير والاستيراد التي نصت عليها معاهدة
١٨٣٨ ، وحث في نفس الوقت على ضرورة اصدار أوامر
واضحة للمديرين وغيرهم من الموظفين حتى لا يثيروا العراقيين
أمام شراء القطن والحبوب وغير ذلك من منتجات مصر من
المزارعين وطلب اعلان ذلك في شتى ربوع مصر . ورغم نجاحه
في التوصل الى الغاء احتكار الأنبذة والخبور فقد كان يشك
في جدوى العمل على فرض الرسم بشكل آخر عن طريق فرض
ضريبة على تجار القطاع في المدن (٣) . وقد أصدرت حكومة

(٢٢) الملف رقم ١٢/١٤٢ - رقم ٣ من بروتوكول بتاريخ ١٧ يناير ١٨٤٢ .

النمسا أو أمرها إلى قنصلها العام بالإشتراك مع بارنت في القيام
بجهد بصدد هذه المسألة ، كما صدرت تعليمات إلى قنصل
فرنسا العام بأن يبذل كل ما في وسعه بالتنسيق مع قنصلى النمسا
وبريطانيا لاقتناع الوالى باتباع نظام البيع العلنى بالمزاد وهو
ما وعد مرارا وتكرارا بتنفيذه (٢٣) .

ورغم ذلك كله فقد واصل محمد على اتباع سياسة
الاحتكار واقترح على بعض التجار أن يبيع لهم قطن مصر والسودان
ومحاصيلهما بسعر مخفض فى مقابل بعض التسهيلات المالية
التي يقدمونها له (٢٤) . كما قرر بيع كمية كبيرة من القمح كان
قد عرضها فى الماضى على بعض الأطراف (٢٥) . وفى تلك
الأثناء كان يفيد من بنود المعاهدة التي مكنته من رفع الرسوم
على الصادرات والواردات . وكان بارنت يرى أن أهم المضار
التي كان من الممكن أن تواجه التجارة البريطانية ، فيما
لو أمكنت إزالة كل المصاعب الأخرى ، ترتبط بالنظام الذى كان
الوالى لا يزال يفرضه فيما يتعلق بالاستيلاء على أراضي الفلاحين
فيما كان يعنى أنه يفرض بالتدريج احتكارا لكل منتجات

(٢٣) نفس الملف ، رقم ٩ و ٢٩ من بارنت بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٤٢
١٧ نوفمبر ١٨٤٢ .

(٢٤) من بارنت بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٨٤١ .

(٢٥) الملف ٥٤١/٧٨ - رقم ٦ وزارة الخارجية إلى بارنت في
٢ أبريل ١٨٤٣ .

البلاد (٢٦) . فقد منح أفراد أسرته ما يقرب من كل شفاللك الصعيد وذلك سعيا منه الى التهرب من بيع محاصيل هذه الأراضى بالمزاد العلنى فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يمنحها لأصدقائه (٢٧) . كما كان قد أصبح مالكا لثلثى الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر وكان يضع يده على نسبة كبيرة من منتجات الفلاحين التى كانت الحكومة تشتري قدرا منها بالسعر الذى تحدده وتأخذ قدرا آخر فى مقابل الضرائب .

ولهذا فاذا ما اعتبر مالكا للأرض كان حر التصرف فى المحصول ، أما اذا اعتبر جاكما لمصر فانه كان يتصرف فى الأراضى بالنيابة عن سيده السلطان وحينئذ كان عليه أن يطبق المادة الثانية من معاهدة ١٨٣٨ (٢٨) . التى نصت على بيع محاصيل

(٢٦) من بارتنت فى ٣ يناير ١٨٤٢ .

(٢٧) ٨٥٢/٧٨ - من بارتنت بتاريخ ١٥ يناير ١٨٤٤ .

(٢٨) كان نص هذه المادة كالآتى : « يسمح لرعايا جلالة ملكة بريطانيا أو لندوبيهم بأن يشتروا فى كل الأماكن الداخلة ضمن الأملاك العثمانية (سواء بالنسبة الى التجارة الداخلية أو التصدير) ، دون أى استثناء ، منتجات أو تطوير أو محاصيل هذه الأملاك ويتعهد الباب العالى رسميا بإلغاء كل الاحتكارات المفروضة على المنتجات الزراعية أو كل سلعة أخرى ، وكذلك إلغاء كل التصريحات التى يصدرها الحكام المحليون لشراء أى سلعة أو نقلها من مكان الى آخر بعد شرائها . وكل محاولة تبذل لإلغام رعايا جلالة ملكة بريطانيا على استلام مثل هذه التصريحات من الحكام المحليين ستعتبر خرقا للمعاهدات وسيوقع الباب العالى فى الحال عقوبات قاسية على أى وزراء وغيرهم من الموظفين الذين يرتكبون مثل هذه المخالفات ، وسيجرى انصاف الرعايا البريطانيين - بتطبيق أكبر قدر من العدالة - من كل المضار والخسائر التى يثبت بمرور الزمن أنهم قد تعرضوا لها » .

الأراضي بالمزاد العلني . وهو ما كان يطبق في استانبول على
المحاصيل التي في يد الحكومة العثمانية (٢٩) . وقد أنصاع
محمد علي لضغط القناصل وأصدر تعليمات تقضي بمنح الأجانب
حق بناء السفن من أجل استعمالهم الخاص وبأن ينقلوا عليها
منتجات البلاد بشرط أن يقوم بالخدمة فيها ملاحون مصريون وأن
تحمل العلم التركي . ولكن قبل أن يتمكن التجار من بناء
السفن لمسوا صعوبة استئجار مزيد من السفن في حين أن من
كانوا يمتلكون سفنا لم يستطيعوا الحصول على ملاحين .
وقد قيل في ذلك ان احتكار السفن قد انتهى برغم كون الملاحين
من رعايا الباشا الذين لا يمكنهم التصرف الا بحسب
مشيئته (٣٠) .

وحاول بارنت اقناع الوالي بالتخلي عن احتكار وسائل
النقل وفتح المناطق الداخلية من البلاد أمام ملاحه الأجانب وذلك
رغم أن التجار البريطانيين كانوا لا يتجهون الا نادرا الى داخل
البلاد بقصد شراء الحنطة أو غيرها من المنتجات - فهم كانوا
يفضلون الشراء في الاسكندرية على المتاعب والمخاطر الناتجة
عن نقل السلع عن طريق النيل (٣١) . ولم يلتزم محمد علي بأي
وعد بصدد احتكار وسائل النقل ، بل انه احتكر الطريق البري

(٢٩) الملف ٥٤١/٧٨ - رقم ٢٧ من بارنت بتاريخ ١٩ أغسطس ١٨٤٢ .

(٣٠) دفلن ، ص ١٨٧ .

المستد بين القاهرة والسويس ، وفي عام ١٨٤٦ انتقلت خدمات النقل الى الحكومة المصرية وأصبح كل الموظفين الأوروبيين في الشركة تابعين للحكومة وانقصت رسوم السفر من ١٥ الى ١٢ جنيها مما أدى الى سخط المسافرين البريطانيين والحكومة البريطانية التي حاولت دون طائل عقد معاهدة مع الوالى حول الطريق البرى بين القاهرة والسويس ، كما اشترى محمد على سفن شربة بنسولار وأورينتال التي كانت تقوم بالنقل النهري على النيل •

ورغم أن محمد على لم يعرض قطنه في المزاد العلنى ولم يبد أى استعداد للسماح لأى تاجر مستعد لدفع الثمن اللازم بالحصول على هذا القطن ، فإن لورد بالمرستون لم يعتقد أن الوالى كان يسعى الى التهرب من شروط المعاهدة ، وكان يرى أن الأمر لا يستدعى تدخلا من جانب الحكومة البريطانية . فقد يكون الاجراء الذى اتخذه مربحا له ، ولكن حتى يتضح أن الرعايا البريطانيين لا يعاملون على نفس الأسس المطبقة على رعايا الدول الأخرى لم يكن ثمة مبرر للشكوى (٣١) • لهذا كان من رأى بارت أن الأمر يستلزم ابلاغ التجار البريطانيين بأنهم فى حل من عدم دفع الرسوم التى نصت عليها المعاهدة الا بعد أن تطبق كل نصوصها (٣٢) • وقد وافقت

(٣١) من بارت بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٤٣ •

(٣٢) من وزارة الخارجية الى بارت بتاريخ ٢٥ يولييه ١٨٤٣ •

الحكومة البريطانية على وجهة نظره هذه ، ولكن لما كان سفيرها في استانبول سير ستراتفورد كاتنج (ستراتفورد دي ردكليف فيما بعد) قد ذهب الى أن الباب العالي قد تعهد بإقناع محمد علي بإلغاء الاختكارات وبأن يتمتع من إثارة ما يحمل الحكومة البريطانية على الشكوى منه فقد أرسلت التعليمات الى بارت لكيلا يتخذ أى خطوات أخرى لحث الوالى على تنفيذ المعاهدة ما لم تصله تعليمات أخرى من وزارة الخارجية أو من كاتنج وذلك بعد التأكد من نتائج التدخل الذى وعد الباب العالي بالقيام به (٣٤) * ولم ينكر الرئيس أفندى (وزير الخارجية التركى) عدالة الشكاوى البريطانية كما لم يعترض على موقف كاتنج منها ، وان يكن قد أبدى كثيرا من التردد فى اصدار أوامر علنية لمحمد علي فى ذلك الوقت ذاهبا الى أنه قد وعد بإلغاء الاختكارات بمجرد انتهاء مدة العقود القائمة خاصة وأن الصدر الأعظم قد كتب الى الوالى بنفس الفحوى الذى طالب به كاتنج (٣٥) * الا أن بارت لم يبد استعداده لتوقع نتيجة ايجابية جدا لمساعى الباب العالي بصدد تنفيذ المعاهدة فى مصر لأن محمد علي كان يستند الى حزب قوى فى استانبول ولأن مشاكل الدولة العثمانية المالية كانت تحول

(٣٣) وزارة الخارجية الى بارت بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٤٢ .

(٣٤) نفس الوثيقة .

(٣٥) الملف ١٤١/٦ - رقم ٢ من كاتنج الى بارت فى ٥ مارس ١٨٤٢ .

بينها وبين اثاره محمد على الذى كان يجهل أن يعمد الى تأخير دفع الارشالية التى كان على مصر أن ترسلها سنويا الى استانبول (٣٦) •

على أن محمد على أبدى فى مايو ١٨٤٢ استعدادا أكثر من ذى قبل للتمشى مع مقترحات بارنت والقناصل العامين الآخرين ، فوافق على أن يقوم فى المستقبل ببيع منتجات الأراضى التى يمتلكها بالمزاد العلنى ، فباع ٤٠٠٠ رءب من محصول بذرة السمسم المتوقع وباع كل كميات الحبوب التى توقع الحصول عليها بسعر يقل عما عرضه أربعة أو خمسة من التجار الذين اعتاد محاباتهم • وقد ألقى اتفاق البيع بعد تدخل بارنت • وما تجدر الإشارة اليه أن الطلب قد اشتد على طلب بذرة السمسم فى فرنسا التى كان يجرى فيها استخدام زيت السمسم فى إنتاج الصابون (٣٧) • كما وافق محمد على على تطبيق معاهدة ١٨٣٨ وذلك حين وعد بوقف احتكار القطن بعد جنى المحصول التالى •

ثم انتقل بارنت الى مسألة التعريف التى حددت الرسوم الواجب دفعها عن مختلف سلع التصدير والاستيراد • وكان من رأيه أن التعريف قد حددت دون ادراك كاف لمتوسط أسعار

(٣٦) الملف رقم ١٣/١٤٢ - المكاتبه رقم ١٨ من بارنت الى وزارة الخارجية ٢١ ابريل ١٨٤٢ •

(٣٧) نفس الملف - من بارنت الى وزارة الخارجية فى ١٥ مايو ١٩٤٢ •

السلع المصدرة أو لنوعية وقيمة السلع المنتجة التي كانت تشكل أكبر نسبة في الصادرات البريطانية الى مصر (٣٨) . وكانت كل السلع التي يجرى انتاجها في بريطانيا وترد الى مصر تطبق عليها هذه التعريفة ، ولما كانت معاهدة ١٨٣٨ تفرض تعريفة قدرها ٥٪ على الواردات و ١٢٪ على الصادرات فقد وافق محمد علي في النهاية على اقتراح بارنت الخاص بدفع رسوم الاستيراد والتصدير (٣٩) . وبذلك أمكن التخلص من عقبة كبيرة بصدد تطبيق حرية التجارة في مصر . ولكن رغم الغاء بعض الرسوم التي فرضت على البضائع لصالح التجارة البريطانية فقد ظل التجار البريطانيون يدفعون رسوما تزيد على ما كان يدفعه رعايا روسيا الذين كانت المعاهدات تسمح لهم باستيراد بضائع الى داخل الأملاك العثمانية بعد دفع رسم الاستيراد البالغ ٣٪ وهو ما كان يدفعه التاجر البريطاني مقابل كل الرسوم الداخلية الأخرى . وبعد الغاء هذه الرسوم والرسوم الداخلية كان الرعايا الروس يتمتعون بكل مزايا الغائها

(٣٨) - بلغ رسم تصدير القطن أكثر من ٢٢٪ على حين بلغ رسم تصدير الصوف من ٢٠ الى ٢٥٪ وبين مخا ١٤٪ والقرطم ٥٠٪ وقرون الجاموس والبقر ٢٢٪ والأفيون ١٥٪ وكل أنواع الحبوب ما يتجاوز ١٢٪ وبلغ رسم استيراد الأقمشة القطنية حوالي ٩٪ بدلا من ٥٪ .

نفس الملف - رقم ٢٠ من بارنت الى وزارة الخارجية في ٢٠ مايو ١٨٤٢ .

(٣٩) عن نفس الشخص في ٢٦ مايو ١٨٤٢ .

دون أن يدفعوا مقابلًا لذلك منا أعطاهم ميزة ٢٪ على الرعايا
البريطانيين (٤٠) .

كما طبق نظام الاحتكار على السودان الذى ظل تحت
الإدارة المصرية بعد عام ١٨٤١ طبقا لفرمان خاص منح لمحمد على
الذى سبق أن رأينا أنه كان منذ البداية قد اقترح على تجار
معينين أن يبيع لهم محاصيل القطن والقمح فى مصر والسودان
مقابل الأموال التى يدفعونها له بين وقت وآخر وأن يسلم هذه
المحاصيل بثمان أقل من سعر السوق . وكان معنى هذا احتكار
محمد على لمحاصيل مصر والسودان وأن يكون التجار
القليلون الذين يحصلون على هذا المحصول هم البائعون
الوحيدون له ، وكان من المفهوم أنه سيتقدم ما لا يزيد على ستة
تجار ، ومعنى ذلك فرض احتكارين مما جعل من المستحيل أن
تتنافس هيئة التجار فى شراء أو بيع السلع لمن امتلكوها بهذه
الوسائل . وقد يجوز القول بأن الوالى بتنظيمه هذه الشركة
من المشترين قد تهرب من وعده بتنفيذ بنود معاهدات
الامبراطورية العثمانية مع الدول الأجنبية . وهكذا اتضح أن
الاجراء المقترح كان شديد الوطأة على التجارة العامة وعلى
التجارة البريطانية بالذات وذلك على اعتبار أن المحتكرين لن
يعجزوا عن أن يبيعوا لمواطنيهم وغيرهم بأعلى الأسعار فى الوقت

(٤٠) الملف ٨/١٤١ دوبرتسون الى بارنت - أول مارس ١٨٤٣ .

الذى تعترضهم فيه منافسة في السوق العام (٤١) . وفي مارس ١٨٤٢ أعلن بوغوص بك وزير التجارة والشئون الخارجية في مصر أن الوالى قد أصدر أوامره الى حاكم سنار بأن يطلق العنان للتجار بسلع البلاد من البحنة والصمغ والعاج والجلود ونبات السنا . وصدرت في نفس الوقت أوامر من الوالى لنفس الحاكم بشراء كل هذه السلع لحسابه مما كان يعنى عودته الى سياسة الاحتكار وتطبيقها لمصلحته الخاصة (٤٢) .

ومن الطبيعى أن تتجه كل منتجات سنار الى مخارج لتجنب الأرباح الطائلة التى سعى انوالى المحتكر الى الحصول عليها - وكانت أهم هذه المخارج ميناء مصوع وسواكن الواقعان على الساحل الغربى للبحر الأحمر . ولما كان محمد على مصمما على تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة فقد حصل من الباب العالى على حكومة المدينتين مما جعله يغلظ كل المنافذ أمام منتجات سنار ويحمل تجار الصمغ الأوروبين في جدة وغيرها على الاعتماد عليه في الحصول على هذه السلعة (٤٣) . وكان وضع الوالى في السودان أضعف منه في

(٤١) الملف ٧/١٤١ - رقم ٢٦٤ من بونسنبى الى بالمرستون في

٣ أغسطس ١٨٤١ .

(٤٢) ٢٠٩/١٩٥ - بارنت الى كاتنج في ٦ أبريل ١٨٤٢ - أيضا ٧٠٨/٧٨

رقم ٤٩ من مري الى بالمرستون في ١٠ أغسطس ١٨٤٧ .

(٤٣) ١٠٨/٧٨ رقم ١٤ من مري الى كولى في ١٥ يولييه ١٨٤٧ .

مصر : فعلى حين أنه كان يحكم مصر على أساس وراثى فقد عهد
اليه بياشوية سنار برغبة السلطان ورضاه ، خاصة وقد نص الفرمان
على كونها باشوية منفصلة لا ينطبق عليها مبدأ الوراثة . وقد
أدى هذا الى احتجاج كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا فى كل
من القاهرة واستانبول . وفى يونية ١٨٤٨ أصدر الصدر
الأعظم فرمانا (٤٤) الى والى مصر يأمره فيه بأن يمتنع عن
احتكار منتجات سنار . بل ان القنصل البريطانى
العام - مرى Murray - ذهب الى أن تردد الوالى أو امتناعه
عن تطبيق المعاهدة من شأنه أن يستتبع حث الباب العالى
على خلع باشوية سنار على موظف يرسل من استانبول رأسا
واسترجاع الباب العالى لحكومة مصوع وسواكن بعد وفاة
محمد على (٤٥) . وفى نوفمبر من نفس العام وافقت الحكومة
المصرية على وضع حد لاحتكار سنار بعد ثلاثة أشهر (٤٦) .
وصدرت الأوامر الى حاكمى مصوع وسواكن بالآلا يرقلا تصدير
الصموغ والسنا التى يمتلكها التجار البريطانيون (٤٧) .

-
- (٤٤) ١٥/١٤١ (نسخة) الصدر الأعظم الى باشا مصر بتاريخ
٦ يونية ١٨٤٨ .
(٤٥) ١٦/١٤٢ - رقم ٢٧ من مرى الى بالمستون فى ٢ يولية ١٨٤٨ .
نوفمبر ١٨٤٨ .
(٤٦) ٧٦٥/٧٨ - من وزارة الخارجية البريطانية الى مرى بتاريخ أول
نوفمبر ١٨٤٨ .
(٤٧) ٧٥٧/٧٨ - من أوتين بك الى مرى فى أول يولية ١٨٤٨ .

وفي عهد عباس الأول أنغيت احتكارات سنار وأطلقت حرية
تجارة الصمغ والسنا - وبقية منتجات هذا الاقليم . كسنا .
أعاد عباس سواكن ومصوع الى الدولة العثمانية بسبب بعدهما
عن مصر ولأن محمد علي لم يحصل عليهما الا للسيطرة على
المخرج الشرقي الوحيد لمنتجات سنار والسودان - وقد وضعت
هاتان المدينتان منذ ذلك الوقت تحت سلطة باشا جدة .
ولم تتردد الحكومة البريطانية في تعيين ممثل قنصلي في
الخرطوم بإمكانه حماية التجار البريطانيين الذين ازداد نشاطهم ،
منذ الغاء احتكار الصمغ والسنا ومنتجات سنار الأخرى ، في
الاتجار بهذه السلع (٤٨) . وفي عهد عباس الأول تدهورت التجارة
الداخلية والخارجية وكانت النتيجة هي أن كميات ضخمة من
المنتجات والحبوب والقطن تكدست في شئون الحكومة لعدم
صلاحيتها للبيع بثمن يبلغ ٦٠٪ من القيمة التي كانت عليها في
العام السابق - وفي الوقت الذي كانت فيه الموارد الانتاجية
في مصر تعاني من الشلل استمر الاتفاق على بناء القناطر الخيرية

(٤٨) (١٧/١٤١ رقم) وزارة الخارجية الى مري في ١٢ مارس ١٨٥٠ .
في الوقت الذي كانت فيه المدينتان تخضعان لحكام يعينهم الباب العالي رأسا
نشطت التجارة الى حد كبير بينهما وبين جدة ونومباي وأماكن أخرى قام بالتجارة
فيها تجار معظمهم بريطانيون وإنجليز - عنود (١٦/١٤٢ - رقم ٦ من مري
لكانسج في ١٨٤٨/٦/٢٥) .

والترع والتحصينات وغيرها من الاستعدادات البحرية (٤٩) .
وكانت الخزانة خاوية وكانت كل ادارات الخدمة العامة مفلسة
باستمرار وكانت القسوة الشديدة لاتزال تصطنع في ارجاع
الفلاحين الى شفاك الوالى بعد أن دفعهم سوء المعاملة والعوز
الى مبارحتها (٥٠) . وحين وجدت الحكومة المصرية ألا فكاك
من تطبيق بنود المعاهدات وافقت على إلغاء الرسوم التى كانت
مفروضة حتى ذلك الوقت على بولاق ، ميناء القاهرة (٥١) .

وفي عهد عباس جرت تغييرات كثيرة أثرت في تجارة مصر
وعلاقاتها الخارجية - فقد طبق دون هوادة أمر صدر لأول مرة في
عهد محمد على وبمقتضاه كان لايمكن تنفيذ أن اتفاق لشراء
المحصول من الفلاحين عن طريق الدفع مقدما ، وذلك بالموافقة
الضمنية من جانب القناصل العامين . وكان كل ذلك في البداية

(٤٩) ٦٢٣/٧٨ - بارت الى بالمرستون في ١٧/٦/١٨٤٨ ورسالة أخرى
مؤرخة ١٨٤٨/٧/٣ .

(٥٠) نفس الملف - بارت الى كاننج في ١٤/٢/١٨٤٥ .

(٥١) ٣٣٠/١٩٥ - رقم ٢٦ من مري الى بالمرستون في ١٩/٣/١٨٤٩ .
جرت محادثة بين مري وأرتين . وقد رد مري على ملحوظات أرتين عن صعوبة
وضع حد للنهرب بأن مثل ذلك يحدث بلوحة أكبر في إنجلترا وفرنسا وأن من
واجب الحكومة أن تواجه هذه الصعوبات وتنقلب عليها باقامة مراكز جمركية
تتميز بالكفاءة في مدن وموانئ الحدود لا في أماكن بالداخل لما يتضمنه هذا
من خرق للاتفاقيات التجارية القائمة .

١ ٣٣٠/١٩٥ - رقم ٦ من مري الى كاننج بتاريخ ١٢ مارس ١٨٤٩) .

موضعا لبعض الشكوى من جانب صغار التجار والوكلاء الذين اعتادوا على زيارة الأقاليم لشراء كميات صغيرة من المحصول كانوا يقومون ببيعها في أسواق القاهرة والاسكندرية . على أن مثل هذه الشكاوى لم تقدم فيما بعد - وقيل ان عهد عباس الأول الذى تميز بالتساهل أدى الى اهمال هذا القانون الذى لم يبلغ على أى حال . وكان هذا يجرى فى بعض المناطق بعلم من الحكام المحليين كما وجد نظام يقوم على التهرب كان يتبع بنجاح بوجه عام . وكان الشخص الذى يتقدم بعروض الى الفلاحين بشأن محصول لم يتم جنيه يحصل من المزارع ، بدلا من عقد بالصورة المألوفة ، على كمبيالة مالية بمبلغ لا يشتمل فقط على النقود التى دفعها بل أيضا على مبلغ آخر من شأنه ، حسب تقديره ، أن يواجه ثمن السلعة فى الوقت المتوقع للتسليم . وكان ثمة اتفاق شفهي بين الأطراف ، وحين كان الفلاح يسلم المحصول كان مندوب التاجر يعفيه من تعهده المالى ، واذا ما عجز عن تسليم المحصول كان بالامكان أن يطلب من المحكمة المحلية تنفيذ الشروط المالية للعقد التى كانت تشتمل على ربح كبير . وكان يبدو أن هذا الاجراء شاذ رغم كونه مضمونا ، وكان بوجه عام مفيدا لحماية الأطراف المستعدة للتقدم بعروض للمزارعين .

أما الوكالات الكبيرة فلم تتعرض لأى ضرر طالما كانت الحكومة تبيع مجاصيلها بالمزاد العلنى . وكانت هذه المزادات

تجرى بطريقة عادلة ، وفي فترات منتظمة أيا كانت حالة الأسواق . وعلى حين أن محمد على كان يبيع لحوالي اثنتى عشرة وكالة معظمها يونانية وفرنسية كانت تبيع لتجار آخرين بأسعار عالية ، فان عباس كان يبيع بالميزاد (٥٢) . وقد ثار التجار واحتج قناصل النمسا وسردينيا وتسكانيا على ما اعتبروه محاولة من جانب الوالى لاحتكار كل المحصول وعرقلة اتصال التجار بالفلاحين بهدف جعل منافسة الأجانب له أمرا مستحيلا (٥٣) . وكان في الواقع قد أصدر منشورا دوريا يقضى بسريان النظام الذى كان يطبق حتى ذلك الوقت من حيث تسليم المزارعين محاصيلهم لبيوت تجارية قبل أن يدفعوا الضرائب المستحقة للحكومة وأن أى أشخاص يشترون من مزارعين مدانين نتيجة لذلك قد يتعرضون لالغاء صفقاتهم ومصادرة بضائعهم (٥٤) ، مما يعنى العودة الى نظام الاحتكار القديم وخرق المادة الثانية من معاهدة ١٨٣٨ . وقد احتج قنصل بريطانيا العام - بروس - على هذا الاجراء وأصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها الى سفيرها فى استانبول لكى يبلغ الحكومة العثمانية بأن النظام الذى يطبقه الوالى يشكل بصريح العبارة خرقا للمعاهدة (٥٥) .

(٥٢) ١٦٦/٧٨ من والن الى باجت بتاريخ ٧ يناير ١٨٥٣ .

(٥٣) نفس الملف - رقم ٧ من باجت الى رسل بتاريخ ١٨٥٣/١/٣٠ .

(٥٤) نفس الملف - رقم ٦ من باجت الى رسل بتاريخ ١٨٥٣/١/٨ .

(٥٥) ١٠٣٤/٧٨ مسودة رقم ٣٦ من وزارة الخارجية الى بروس بتاريخ

١٨٥٤/٦/١٦ .

يضاف الى ذلك أن عباس أصدر أمرا في سبتمبر ١٨٥٣ يقضى بتحريم تصدير الحبوب بحجة أن فيضان النيل قد دمر نسبة كبيرة من المحصول . وازاء احتجاج القناصل وافق الوالى على تصدير الكميات الموجودة فى الاسكندرية . ورغم سماحه بنقل الحبوب الى الاسكندرية فان الحكومة لم تسمح بالتصدير الحر ولم يفرج عما تمتلكه الحكومة أو الوالى لكى يشق طريقه الى السوق (٥٦) . كما أصدر عباس أمرا ينص على أن تتوقف السفن المحملة بالحبوب فى العطف - حيث يلتقى النيل بترعة الحمودية . وقد احتج بروس على ذلك وبأشر الضغط من أجل تطبيق المعاهدات وصرح للسلطات المصرية بأن الوالى سيضع نفسه فى مركز حرج بحكم أنه سيجعل ادارته المنفصلة لمصر لا تتمشى مع تشدد الباب العالى فى تطبيق معاهداته . وقد قيل ان الوالى قد اتبع هذا الاجراء لكى يستولى على المحصول بثمان بخص على أن يبيعه بعد ذلك بما يعود عليه بالفائدة ، على حين رأى آخرون على معرفة جيدة بالبلاد أنه كان يخشى أن تطلب منه تركيا أن يزودها بكمية كبيرة من الحبوب - وقد ساد الاعتقاد بأنه كان يرغب فى الحصول على السلاح بحجة المحافظة على الأمن موفرا بذلك حجة لرفض طاعة الأوامر (٥٧) . وقد صرح عباس بأن الحكومة العثمانية طلبت من مصر أن

(٥٦) ١٠٥٣/٧٨ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٦/٢/١٨٥٤ .

(٥٧) نفس الملف - رقم ٤ من بروس الى كلارندون بتاريخ ٢/٢/١٨٥٤ .

تزودها بالحبوب ووعده بأن تدفع تسعين قرشا في مقابل أردب القمح حين يتم تسليمه الى استانبول (٥٨) . ولما كان شديد اللؤم ولم يكن على استعداد لبذل التضحيات في سبيل الحرب الناشبة بين تركيا وبريطانيا وفرنسا من ناحية وبين روسيا من جانب آخر ، فانه استحوذ على كل قطن البلاد ولم يقم ببيعه مما يدل على حرصه على أن يشاع عنه أنه يواجه صعوبة في الحصول على الأموال اللازمة للاصلاحات الداخلية التي كان يقوم بتنفيذها وأنه لم يدخر وسعا في مساعدة الباب العالي ، وذلك رغم أنه لم يتبين أن موارد مصر وأحوالها كانت معروفة تماما في استانبول (٥٩) . ولما وجد عباس أن اليونانيين هم المشترى الرئيسيون لمحاصيل المناطق الداخلية في مصر فقد قرر طردهم جميعا من البلاد . وقد اشتد حاكم الاسكندرية في تنفيذ الأوامر الصادرة اليه بهذا الصدد ، وخين بدا أن احتجاجات الدول الحليفة لم تكن موضع اهتمام بعد أن طالبت باطالة أمد المهلة لصالح اليونانيين الذين كان من المحتمل أن تتعرض تجارتهم واسعة النطاق مع البيوت التجارية لخسائر كبيرة فقد تم منح

(٥٨) ١٠٣٦/٧٨ رقم ٢٨ من بروس بتاريخ ١٦/٦/١٨٥٤ .
(٥٩) نفس الملف رقم ٣٤ من بروس بتاريخ ٥/٧/١٨٥٤ . ولم يستلم عباس رسالة الباب العالي بصدور الاجراءات التي اتخذها بصدد احتكار بيع الحبوب ، وذلك نتيجة لوفاته المفاجئة (١٨/١٢٢) - رقم ٧ من بروس الى ستراتفورد - ذي ردكليف (ستراتفورد كاننج في السابق) بتاريخ ١٨٥٤/٨/٤ .

معظمهم الحماية الأجنبية . وكان عباس الذى سعى الى احتكار
محاصيل البلاد قد وجد فى التجار اليونانيين عقبة كأداء وقرر
التخلص منهم (٦٠) ، خاصة وأن نشاطهم ومعرفتهم بلغة
الأتراك وعاداتهم قد جعل منهم منافسين أقوياء . الا أن السفير
البريطانى فى استانبول أصدر منشورا دوريا طالب فيه بالسماح
للعرايا اليونانيين العاملين فى البيوت التجارية البريطانية أو فى
خدمة الرعايا البريطانيين بوجه عام بالبقاء على مسئولية من
يقومون بالعمل لحسابهم أيا كان نوعهم وبأن تزودهم السلطات
العثمانية « ببطاقة أمان » وذلك باستثناء الحالات التى يثير فيها
سلوك أحد الطرفين شكوى خاصة من جانب البوليس (٦١) .

وكان موقف عباس من اليونانيين مرتبطا بسياسته الداخلية
العامة . فقد كانت الأملاك التى ورثها أبناء محمد على وإبراهيم
عبارة عن عهد وشفالك (بمعنى أنها كانت فى السابق فى أيدي
المماليك) . وكان حائزو الشفالك لا يدفعون أى ضرائب
للحكومة . ولم يستول عليها عباس استيلاء مباشرا ، ولكن
لما كان يسعى الى إلحاق الضرر بحائزيها فقد اتوى تحقيق
هدفه على الوجه التالى : فقد سعى حكام الأقاليم الى حرمان
الملاك من الأموال اللازمة للزراعة بحيث أن الفلاحين كانوا

(٦٠) ١٠٣٥/٧٨ - من روس الى كلارندون بتاريخ ١٦/٥/١٩٥٤ .

(٦١) نفس الرسالة .

يزرعون الأرض لحسابهم حين يجدونها غير مزروعة - ومن الناحية القانونية كان يطلب منهم أن يدفعوا للمالك مبلغا يساوي قيمة ضريبة الأرض ولو أن تعليمات صدرت الى الحكام لكيلا يلبوا مطالب المالك الذي لم يعد يحصل على أى دخل منها مما اضطره الى تركها بعد وقت قصير . وكان ابراهيم باشا قد خلف ما ينوف على ٧٠ قرية اعتبرت عهدا وقام عباس بوضع يده عليها وبذلك حرم منها أبناء ابراهيم . وكان شاغل العهدة يقدم رأس المال ويقوم بزراعة السكر والقطن التى تتكلف كثيرا من النفقات . وكان مشايخ القرى الأغنياء يلعبون فى زراعة نواحيهم دورا لا يقل عن ذلك أهمية . وبعد أن تضعفت أحوالهم أدت اجراءات الحكومة الخاصة بالضغط عليهم وارغامهم على الاستدانة الى تمكينها من الاستيلاء على أموالهم الوفيرة . وتدهورت الزراعة التى كانت مصدرا لأرباح طائلة بعد أن حرمت الأراضى من خدمات الرأسماليين فى الوقت الذى لم تفعل فيه الحكومة شيئا ملء الفراغ . ولم يقم الوالى باستثمار الأراضى الأقل خصوبة مما أدى الى لجوء الفلاحين المحرومين من مساعدة الرأسماليين المحليين الى عملاء البيوت التجارية الذين كانوا يقدمون لهم سلفا بضمان المحاصيل . ولما كان عباس شديد الرغبة فى حرمانهم من هذا المصدر فقد سعى الى إعادة العمل بمنشور دورى كان محمد على قد أصدره ونص على تحريم بيع المحاصيل غير الناضجة ، والى

ارهاب هؤلاء العملاء الذين كان بإمكانهم تشجيع الفلاحين على عدم التعامل مع مندوبي الحكومة والاستناد الى الامتيازات الأجنبية لكي يدافعوا عن أنفسهم في مواجهة قسوته (٦٢) .

وحين توفي عباس ترك مالية الدولة مدينة بما يقارب مائة مليون فرنك في الوقت الذي كانت فيه خزانة الدولة خاوية تماما (٦٣) . وقد أبدى خلفه محمد سعيد باشا بعض الميول الليبرالية (٦٤) كما أبدى تسامحا مع الأجانب وصل الى حد الضعف . ومرجع بعض هذا التسامح أنه كان يطمح الى تحقيق استقلال مصر . ولما كان تفوق العناصر الاسلامية في البلاد - في رأيه - يقوى قبضة السلطان على مصر فقد اعتقد أن اضعاف هذا النفوذ وتقوية النفوذ المسيحي والأوروبي من شأنهما زعزعة سلطة السلطان وتمكينه هو من الحصول على أنصار وحماة له (٦٥) . كما لم يتصف بالتعصب الذي تميز به عباس وكان شديد الحماسة للأخذ بأي اقتراحات تستهدف تحسين أحوال البلاد (٦٦) . وكان في نظر من يعرفونه رجلا طيبا

(٦٢) ١٠٣٦/٧٨ - رقم ٢٤ من بروس الى كلارندون بتاريخ أول
يونية ١٨٥٤ .

A. Sammerco, Les Règles de Abbas, de Saïd et
(٦٣) d'Isamail (Rome, 1935), P. 8.

J.C Mc Coan, Egypt as it is (London, 1877), P. 81 (٦٤)

(٦٥) ٧٢٢/١٩٥ - رقم ٧ من بروس الى رسل بتاريخ ١٨٦٢/١/٥ .

(٦٦) ٤١٢/١٩٥ - رقم ١٥ من بروس الى ردكليف في ١٨٥٥/٧/١٧ .

حسن النية وان تكن حالته الصحية وقلة نشاطه لا تسمحان له بأن يكون له تأثير دائم على أحوال مصر خلال فترة حكمه (١٧) .

وكان سعيد منذ بداية حكمه يرغب في التخلص من الطابع المرنيتلى الذى سبق لأسلافه أن فرضوه ولهذا لم يضع عقبات في وجه التجار الراغبين في التعامل مع الفلاحين في انداخله . وكان تعليق قنصل بريطانيا العام أن تنفيذ النظام من شأنه أن يثرى الفلاح وأن انشاء وكالات أوروبية سيستتبع في المستقبل اتباع مفاهيم إدارية أكثر استنارة في الداخل وتأمين المزارع على أملاكه ، خاصة وأن عدم توفير الأمن حتى ذلك الوقت كان يؤخر تنفيذ كثير من خطط الإصلاح في مصر . وأضاف أن سعيدا ذو صفات طيبة وأن أفكاره الإصلاحية معقولة ولو أن طبيعته كانت تتضمن بعض العيوب التي تجعل تحقيقها أمرا صعبا - إذ كانت تستهويه المشروعات الضخمة دون أن يتصف بقوة التحمل والعزيمة اللازمين لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعية (١٨) .

وقد عمد سعيد الى الاعتراض على كل ما قام به سلفه مما كان يتناقض تماما مع كل ما اتتواه من اصلاح الإدارة . ويبدو أنه كان يرى أن أحسن وسيلة لاعادة تنظيم مختلف

Dicey, Story of the Khedivate (ondon, 1890), P. 222.

(١٧)

(١٨) ١٩٥/١٢ - بروس الى ردكليف في ٨/٧/٨٥٥ .

الادارات التي كانت قد تدهورت كثيرا في عهد عباس هي الغاؤها كلية وتبرير ذلك بخفض النفقات وضرورة الوفاء بالديون التي خلفها عباس ولو أنه سار على تقيض سياسة سلفه القائمة على الاعتماد على العنصر العربي على حساب العنصر التركي - وقد أخبر قنصل بريطانيا العام بأنه يستهدف ألا يكون لديه من الضباط سوى الأتراك خاصة وأنه كان يعتقد أن العرب لا يصلحون لأي وظيفة عليا مما كان ينذر بوقوعه في أيدي أنصار فرنسا الذين اعتبرهم أولى بالرعاية نتيجة لاضطهاد عباس لهم خاصة وأنه فتح أبوابه لهم وهو ما لم يفعله مع انتجار البريطانيين (٦٩) .

وقد ترتبت على كل ذلك سلسلة من الاصلاحات اللبرالية أهمها إلغاء الرسوم الجمركية الداخلية وكل الاحتكارات وبذلك تحققت حرية التجارة ولم تعد توجد عوائق تعترض الأشخاص الذين يتجرون في الداخل مع المنتجين المحليين . وكانت النتائج مواتية جدا للملاك ، واشتد الطلب في الاسكندرية على الصادرات مما أدى الى ارتفاع أسعار الحبوب في المناطق النائية حتى أسوان خاصة وقد ألغى جمرك بولاق الذي طالما كان موقعا للضغط والاحتجاجات عديمة الجدوى ، كما ألغى

(٦٩) ٤١٢/١٩٥ بروس الى وزارة الخارجية في ١٦/١٢/١٨٥٤ .

انظام السبيء الخاص برسوم الدخولية (٧٠) • الا أن الغاء
نظام الاحتكار بهذا الشكل قد أفسح المجال أمام المغامرين
الأجانب في حين أن الأشخاص الذين نالوا حظوة الوالى قد
اهتموا بالسعى الى الحصول على امتيازات لهم دون غيرهم
يصدد تنفيذ مشروعات لم يكن لمصر سابق عهد بها • وكان
لا بد لهذا النظام أن يكون شديد الضرر لأنه منح مزايا
لأشخاص كانوا قد نالوا حظوة الوالى وبالتالي فإنه تضمن قيودا
على اصلاحات المستقبل وعرض شعب مصر وتجارها للأسعار
التي كان هؤلاء المحتكرون يسعون الى فرضها (٧١) •

وأثبت ضعف سعيد شدة اضراره برخاء مصر لأنه أفسح
المجال لتدخل القناصل الأجانب الذين حقق كثير منهم أرباحا
عن طريق استغلال مناصبهم بأساليب غير شريفة • وكان القناصل
العامون الذين يتقاضون أجرا هم قناصل فرنسا والنمسا واليونان
وبروسيا وبريطانيا واسبانيا والولايات المتحدة وسردينيا
وروسيا • أما القناصل الذين لم يتقاضوا أجرا وكانوا يمارسون
التجارة فهم قناصل هولندا وبلجيكا وتسكانيا وناپولى
والدانمرك وعصبة الهانسا والبرتغال والسويد • وكان معظم
القناصل الذين لا يتقاضون أجرا من مواطنى البلاد التي

(٧٠) ٥٢٢/١٩٥ - رقم ٨ من بروس الى وزارة الخارجية في ١٨٥٧/٢/٢ •

(٧١) ١٢٣٨/٧٨ - رقم ٢١ من بروس في ١٨٥٧/٢/١٢ •

يمثلونها - وعلى سبيل المثال كان قنصل نابولي مشرقيا عاديا جمع ثروة • وكان بعض القناصل قد اشتروا وظائفهم لاستغلال الفرص التي توفرها للحصول على صفقات الحكومة دون أن يسبق لهم تلقي أى تعليم خاص يمكنهم من الاضطلاع بالواجبات القضائية المطلوب منهم القيام بها • ومن الطبيعي أن يكون هدفهم هو اقامة علاقات طيبة مع الحكومة المحلية واستغلال سهولة اتصالهم بالوالى باعتبارهم قناصل عامين (٧٢) • وترتب على كل ذلك أن لعب هؤلاء القناصل دورا حاسما فى فتح أبواب مصر للرأسمالية الغربية النامية ولهجرة الأوروبيين (٧٣) الى البلاد ، كما قاموا بالضغط على الحكومة المصرية للحصول على تعويضات عن خسائر كانت وهمية فى كثير من الأحيان • وقد سجل قنصل بريطانيا العام رأيه حول الدور الذى لعبه أمثال هؤلاء القناصل على الوجه التالى : « تتفق نظرة هؤلاء السادة الى المسائل العامة مع يفيد مصالحهم أكثر من اتفاقها مع سياسة الحكومة التى يمثلونها ، ففى بداية عهد سعيد فى الوقت الذى كانت تناقش فيه فوائد وضع حد لسياسة احتكار الحكومة للمحاصيل،

(٧٢) ١٢٢٢/٧٨ - رقما ١٣ و ٢١ من بروس الى كلاوندون بتاريخ

٤/٤ و ١٨٥٦٢٥/٥ •

(٧٣) رغم عدم وجود احصائيات دقيقة فى مصر حتى عام ١٨٦٧ يقدر

هيسوى عدد الأجانب فى مصر فى عام ١٨٣٦ بثلاثة آلاف وفى عام ١٨٧٨ بأكثر من ثمانية وستين ألفا وفى عام ١٩٠٧ بمائتى ألف وواحد وعشرين ألفا •

Issawi, Egypt in Revolution (London, 1963), P. 43.

وهي السياسة التي سعى عباس باشا مؤخرا الى اعادة تطبيقها ،
كان من أشد معارضي وجهات نظره الليبرالية قنصل بلجيكا
العام الذي لا شك أن تصريحاته لم تكن تتسجم مع سياسة
الحكومة البلجيكية الخاصة بمثل هذه الأمور » (٧٤) .
وكان من رأى بروس أن مصالح الدول الأجنبية وتركيا ذاتها
كانت تتطلب عدم خلق الصلاحيات القضائية واسعة النطاق التي
كان يتسع بها القناصل الذين يمثلون الدول الأجنبية في المشرق ،
الا على أشخاص يشتغلون بالتجارة وأن دخولهم في سلك
وظائف الدولة التي ينتمون اليها وتلقيهم مرتبات كافية مما يوفر
ضمانا كافيا لاستقلاليتهم وأداء مهامهم بوحى من
الضهير (٧٥) .

وكان سعيد تركيا - وكان من عادة الأتراك ، في الوقت
الذي يتبينون فيه أن ممثلي الدول الأجنبية يشتركون في المطالبة
بقسط من المكاسب الناتجة عن انتهاكهم للمواطنين ويساندون
ادعاءات ناتجة عن صفقات غير قانونية أن يعتبروهم على صلة
بالسماسة الذين لم يكن لهم من هدف سوى انتهاك الأتراك .
وبطبيعة الحال كانوا يدركون أن أحسن وسيلة للحصول على
مساندة أي قنصل عام وللتوصل عن طريقه الى كسب ثقة

(٧٤) : ٢٠/١٤٢ - رقم ٩ من بروتس الى وزارة الخارجية بتاريخ

١٨٥٧/٣/١٤ .

(٧٥) نفس الملف - رقم ٦ من بروتس أيضا بتاريخ ١٨٥٧/١/٢٤ .

الحكومة التي يمثّلها هي أن يخلعوا على مواطنيهم نسبة مبالغ فيها من المزايا على حساب مصلحة التجارة والحكومة ذاتها (٧٦) . لهذا كله اعتبر سعيد السلك القنصلي عدوا طبيعيا له بحكم أن أعضائه لم يكن لهم من هم سوى ابتزازه بأي وسيلة . ورغم ذلك فلم يكن بإمكانه مقاومة الضغط الأوروبي المتزايد على مصر الذي استشرى بعد الانهيار النهائي لنظام الاحتكار في عهده . يضاف الى ذلك أن الأشخاص الذين نالوا حظوته كانوا يحتكرون المزايا لتنفيذ بعض متطلبات الصناعية وكانوا يبيعونها لشركات تقوم بتصنيعها وبالتالي كانوا يجورون على سكان مصر ويعمدون الى التضيق على سلطة الوالى حتى يكونوا هم بديلا لها بحيث يحلون محل الجنس التركى في مصر (٧٧) . والنتيجة هي أن التجارة لم تكن تمارس على أساس سليم بحكم أن التجار كانوا يستثمرون رؤوس أموالهم في سندات على خزانة الحكومة كانت تدر ربحا يتراوح بين ١٥ و ١٨٪ - وحتى لا تتأثر سمعة سعيد فانه كان يدفع قيمة السند حين يحل موعده وقد عمد كل الأشخاص الذين كانت لديهم أشياء ذات قيمة الى الاستغناء عنها حتى يتسنى لهم استثمار هذه السندات وان يكن هذا لم يؤثر على حجم

(٧٦) ١٢٢٢/٧٨ - رقما ١٣ و ٢١ اللذان سبقت الاشار اليهما .

(٧٧) ٢٠/١٤٢ - رقم ٢٢ من بروس الى كلارندون بتاريخ ١٦/٨/١٨٥٧ .

الواردات والصادرات. التي ازدادت (٧٨) •

وهكذا اتسح المجال لجعل مصر وحدة زراعية كولونيالية في نطاق النظام السياسى - الاقتصادى العالمى (٧٩) وذلك بعد انهيار خطط محمد على وهو ما نستشف منه أن عدم حصول مصر على الاستقلال الذاتى كان يمثل احدى العقبات الرئيسية التى اعترضت تطور البلاد الاقتصادى • فقد سبق أن رأينا أن رسوم الصادر والوارد كانت تحددها الاتفاقيات المعقودة بين الحكومة العثمانية والدول العظمى فى حين كان لا يمكن فرض أى ضرائب مباشرة على الأجانب دون موافقة حكوماتهم وذلك نتيجة للامتيازات الأجنبية • وكان محمد على قد نشط الزراعة والصناعة والتجارة ودافع عن استقلال مصر الذاتى وأفاد من الخبراء والفنيين الأوروبيين الذين شجعهم على الاستقرار فى مصر ، فى الوقت الذى عرقلت فيه احتكارات الحكومة نشاطات الأجانب فى مصر بحيث أن التوسع فى استيراد رأس المال الأجنبى لم يتم الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وذلك فى أعقاب افتتاح قناة السويس وظهور الحاجة الملحة الى تمويل زراعة القطن واعداده للتصدير •

وكان عباس الأول يقاوم كل أشكال النفوذ الأوروبى

(٧٨) ١١٢/١٤٢ من كلكهون الى رسل فى ١١/١١/١٨٦١ •

(٧٩) عيسوى ، المرجع السابق ، ص ١٩ و ص ٢٤ •

ـ وإذا ما كان قد تميز بكرهه للأجانب الذين انعزل عن مجتمعاتهم فانما كان يستهدف بذلك التصدى للتغلغل الغربى •
أما عصر سعيد فانه يسجل مرحلة انتقال فى تاريخ مصر ـ
فشخصيته وسياسته ، فى الوقت الذى شهد نمو الرأسمالية
والثورة الصناعية فى أوروبا ، كاتتا مسئولتين عن الديون وتنفيذ
مشروع قناة السويس الذى تحملت الحكومة المصرية معظم
تكاليفه وعن الغزو السلمى الأوروبى لمصر • وقد ظهرت نتائج
كل هذه التطورات خلال الجيل التالى لعصر سعيد واستشرى
فى عصر اسماعيل ووصلت قممتها حين خضعت البلاد للاحتلال
البريطانى (٨٠) •

(٨٠) راجع حول هذه التطورات ودلالاتها كتاب « فى أصول المسألة
المصرية » تأليف عيسى وحيدة (القاهرة ١٩٥٠) •

الموضوع الثالث

أوراق حكيان

لم يجر حتى الآن تقويم أوراق حكيان (١) التي كان
هيوارث دن أول من أشار إليها في كتابه :

In trodution to th₁ History of Education in Modern
Egypt (London, 1939).

وتلقى هذه الأوراق أضواء جديدة على أوضاع مصر
خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٣ والتي لم تحظ
بالاهتمام الكافي من جانب المؤرخين ، كما تحتوى على سيرة
حكيان الذاتية وانطباعاته الخاصة خلال الفترة التي قضاها في
انجلترا ما بين عامي ١٨١٨ و ١٨٣٠ . وبالإمكان مقارنة خواطره
بانطباعات رفاة الطهطاوى عن الفترة التي قضاها في فرنسا في
الوقت الذي كان فيه حكيان يدرس في إنجلترا . كما تحتوى
أوراق حكيان على معلومات ورسوم هامة تتعلق بالتنقيبات
الأثرية التي تمت تحت اشراف الجمعية الملكية البريطانية ،
بأوضاع البلاد الاجتماعية التي لمسها خلال اشتراكه في هذه
التنقيبات .

وقد ولد يوسف حكيان في استانبول (حوالى عام ١٨٠٧)
في أسرة أرمنية كاثوليكية . ومنذ طفولته كان والده يحلم
بأن يتلقى ابنه تعليمه في إنجلترا ، وتحققت هذه الأمنية حين

(١) المتحف البريطانى (المخطوطات الاضافية Add. MSS) المخطوطات

توجه الى مصر وأصبح أحد تراجمة محمد علي . وحين قرر محمد علي في عام ١٨١٧ ارسال عدد كبير من أبنائه وموظفيه الى باريس لكي يتلقوا تعليمهم هناك ، انتهز والد حككيان الفرصة فطلب من محمد علي أن يرسل ابنه - الذي كان يقيم مع والدته في استانبول - الى انجلترا . ولبي محمد علي هذا الطلب - وحين وصل حككيان الى دوفر لم يكن يعرف من اللغات سوى التركية (٢) واعترفته الدهشة التي عادة ما يتعرض لها شباب الشرق حين يواجهون أوروبا للمرة الأولى . وفي انجلترا كان يشرف عليه صمويل بريجز الذي سبق له العمل بمصر حيث كان قنصلا عاما لبريطانيا - ولما كان حككيان كاثوليكيا فقد تقرر إلحاقه بكلية ستونيهرست حيث ظل حتى عام ١٨٢٤ يدرس اللغة الانجليزية الى جانب المناهج السائدة في ذلك الوقت : اللغتان الفرنسية واللاتينية وغير ذلك ، وبعد أن أتم هذه الدراسات وصلته تعليمات (في ١١ ديسمبر ١٨٢٤) من بوغوص بك يوسفیان (يوسف) وزير التجارة والشئون الخارجية في مصر تتضمن أمرا من محمد علي على تقضى بأن يكرس حككيان اهتمامه لدراسة آلات الغزل والنسيج من الناحيتين النظرية والتطبيقية الى جانب الاطلاع على كيفية بناء الطرق

(٢) المخطوطة رقم ٢٧٤٦٢ ، ص ٥٦٦ ، هذا رغم ان حككيان يذكر في سيرته الذاتية أنه قبل أن يبارح استانبول كان ملما باللغتين الأرمنية والفرنسية (المخطوطة رقم ٢٧٤٤٨ ، ص ١٦٢) .

والكبارى والقنوات والأرصفة النهرية (٣) •

وفي أول مايو ١٨٢٥ شرع في تنفيذ أوامر محمد علي الخاصة بهذه الدراسات • ثم صدرت اليه الأوامر بزيارة مصانع القطن في جلاسجو بقصد الاطلاع على أساليب الغزل والنسيج في اسكتلنده ومانشستر (٤) وهناك طفق يجمع المعلومات المفيدة عن عمليات تصنيع القطن •

وفي خريف ١٨٣١ عاد حكيان الى مصر بعد أن نسي لغته الأصلية نسيانا تاما مما أدى الى تزويد محمد علي له بمرجم يساعده في مهامه التي واجه خلال اضطراره بها كثيرا من الصعوبات الناتجة عما اكتسبه من مفاهيم في انجلترا (٥) • ومهما كان الأمر فقد تم تعيينه مراقبا عاما لمصانع القطن في الحوض المرصود والخرنقش وبولاق والمبيضة ووضع تحت إشرافه عشرون من طلبة قصر العيني قام بتعليمهم مبادئ الهندسة والرياضيات والميكانيكا بمساعدة مترجم تقوم الحكومة بدفع راتبه • وفي عام ١٨٣٤ افتتحت مدرسة الهندسة في بولاق ثم ألحقت بها في عام ١٨٣٥ مدرسة المهندسين في القناطر الخيرية

(٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ •

(٤) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٢ ، ص ٦٥٠ •

(٥) نفس المخطوطة ، ص ٥٠ •

التي كان بها ثلاثون طالبا (٦) كما ألحقت بها مدرسة المناجم
بمصر القديمة (٧) وتم تعيين حككيان مديرا لمدرسة الهندسة
الجديدة (٨) مما أتاح له الفرصة ليصبح عضوا بديوان التعليم
الذي أنشئ في عام ١٨٣٦ (٩) . وفي أواخر الثلاثينات عين مديرا
لمدرسة العمليات ، كما اشترك في انشاء « الجمعية المصرية »
التي تأسست في عام ١٨٣٥ وكان من أهدافها تقديم خدمات
للمسافرين الأجانب المارين بمصر وكانت لها مكتبة كانت تنعقد
فيها اجتماعاتها . وقد تولى أكثر من مرة ادارة الجمعية التي
اقتنت عددا كبيرا من الكتب وكانت تهتم بوجه خاص بالمطبوعات
المتصلة بالشرق : تاريخه وجغرافيته ودياناته وعاداته ، بل انها
كانت تطمح الى أن تستطيع بمرور الزمن أن تنشر كتبها تتصل

(٦) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي
(القاهرة ١٩٢٨) ص ٣٦٠ - ١ . راجع أيضا محمد فؤاد شكرى : بناء
دولة مصر محمد علي (القاهرة ١٩٤٨) ص ٦٤٥ . ويذكر شكرى أن عدد
طلبة المدرسة بلغ ٢٢٥ .

(٧) أحمد عزت عبد الكريم : نفس المرجع والصفحة .

(٨) كتب محمد علي الى مختار بك مدير ديوان المدارس - بصدد
مناهج مدرسة الهندسة - ليلفت نظره الى عدم وجوب كون التعليم سطحيا
والى انه لم يبعث حككيان ليصبح لوردا في أوروبا ، بل ليعود الى البلاد
ويقوم بتعليم الطلبة النافعين للأمة والبلاد وأمره بالجدية والحماسة في
تعليمهم حتى لا يضرب بالعصى . (أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ،
ص ٤٢٥) .

(٩) لفت حككيان نظر الباشا الى ضرورة تعليم البنات . (محمد فؤاد
شكرى ، المرجع السابق ، ص ٦٦٦) .

باهتماماتها الخاصة (١٠) . وفيما بين عامي ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ترأس ثلاث بعثات كانت تقوم بالبحث عن الفحم في مختلف صحارى مصر وجبالها . وفي عام ١٨٤٩ عين رئيسا لمجلس الصحة ولو أن مرضا مزمنًا أرغمه على التقاعد في عام ١٨٥١ ، وإن يكن قد تلقى تعليمات شفوية من عباس الأول في مارس من نفس السنة لكي ينفذ باسم حكومته بعض الدراسات الخاصة في وادى النيل لصالح الجمعية الملكية البريطانية (١١) . ولكنه سعى الى الحصول على الحماية الانجليزية في مواجهة احتمال تعرضه للعنف ونزوات الطغيان التي لا تقدر العواقب خاصة وأن عددا من الأشخاص من كلا الجنسين اختفوا فجأة دون أن يعرف أحد مصيرهم ، وكان ذلك من وراء مخاوف حكيان خاصة وأنه كان على صلة عائلية بأرتين بك (١٢) الذى تعرض لسطو الوالى (١٣) . الا أن مخاوف حكيان لم تكن تستند الى أساس فواصل تنقيباته مع مستر ليونارد هورنر عضو الجمعية الملكية البريطانية حتى أواخر عام ١٨٥٦ حين أتم تقاريره النهائية

(١٠) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على (القاهرة ١٩٥١) ص ٦٤ - ٦٥ . وقد اضمحلت الجمعية فيما بعد ، وتوجد كتبها في دار الكتب بالقاهرة وذلك تنفيذا لوصية آخر أعضائها : حكيان وثربرون وكيانى بك .

(١١) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ٢١٧ - ٣١٩ .

(١٢) كان حكيان متزوجا من أخت أرتين .

(١٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٤٨ - من حكيان الى بريجز

بتاريخ ١٨٥١/٤/٢٩ .

وعيناته ورسوماته وعمليات المسح التي كان يقوم بها . وبالإضافة الى ذلك فانه انشغل فيما بين عام ١٨٥٤ ونهاية عام ١٨٦١ بدراساته الخاصة التي ضمنها كتابا عاديا - ولما كان كثير من رجال العلم الذين احتك بهم وحادثهم أحيانا حول الموضوع قد شجعوه فانه أبدى رغبته في نشر الكتاب في إنجلترا وطلب من والى مصر سعيد باشا أن يساعده على مواجهة نفقات اعداد وطبع مائتي نسخة من هذا المؤلف (١٤) ووافق سعيد على ذلك ودفع خمسمائة جنية (١٥) ، وتم نشر الكتاب في لندن في عام ١٨٦٣ في طبعة خاصة تحت العنوان التالي :

A Treatise on the Chronology of siriodic Monuments

ولم أستطع تحديد وضع حكيان الوظيفى حين تم نشر الكتاب خاصة وأنه أشار الى كونه « حكيان بك الاستانبولى الموظف السابق بالحكومة المصرية » . أما أوراقه الخاصة ويوميياته ومراسلاته وملحوظاته ورسومه وغير ذلك (١٨٢٩ - ١٨٧٤) فقد قام ابنه تيتو حكيان أحد أقطاب الجالية الأرمنية في الاسكندرية - باهدائها فيما بعد الى المتحف البريطانى (١٦) .

(١٤) المخطوطة رقم ٣٧٤٦٣ ، ص ١٧٨ - ٩ (مذكرة مؤرخة ٢١ يولية ١٨٦٢ .

(١٥) نفس المخطوطة ، ص ١٨٢ - ١٨٣ و ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(١٦) عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد على ثم في عهد عباس

الأول وسعيد (القاهرة ١٩٣٤) ص ١٠٧ .

تفتح أوراق حكيان في أربعة وعشرين مجلدا رتبت على
الوجه التالي :

المجلد الأول :

مفكرات ورسوم (٢٥ ابريل - ٨ مايو ١٨٢٩) - يوميات
في انجلترا (يولييه ١٨٢٩ - يناير ١٨٣٠) - سيرة ذاتية كتبت
خلال الرحلة الى مصر (يولييه - سبتمبر ١٨٣٠) ويوميات
الرحلة - يوميات في مصر (٢٩ أغسطس ١٨٤٠ - ٢٣ أغسطس
١٨٤١) .

المجلد الثاني :

• تكملة اليوميات مع ملحوظات ميدانية .

المجلد الثالث والرابع :

• تكملة اليوميات .

المجلد الخامس :

تكملة اليوميات بالاضافة الى سجلات حول التنقيبات
الأركيولوجية والجيولوجية .

المجلد السادس :

• تكملة اليوميات .

المجلد السابع :

• ملحوظات ميدانية ورسومات .

المجلد الثامن :

استعراض التنقيبات التى أجريت فيما بين عامى

١٨٥٢ و ١٨٥٤ •

المجلد التاسع :

يوميات سجلت فى عام ١٨٦٢ •

المجلد العاشر :

رسومات خاصة بالآثار التى جرى التنقيب عنها فى

عام ١٨٥٤ بالاضافة الى جداول بمنسوبات النيل وغير ذلك •

المجلد الحادى عشر :

رسومات (بعضها ملون) ومشروعات الآثار والتنقيبات

المصرية والقوائم الخاصة بها •

المجلدات الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس

عشر والسادس عشر :

مراسلات حكىان •

المجلد السابع عشر :

قوائم خاصة بالمناسيب وأعمال الحفر ومادة أخرى

جيولوجية (١٨٥١ — ١٩٥٤) •

المجلد الثامن عشر :

مراسلات وأوراق رسمية متفرقة كُتبت باللغتين التركية والعربية (١٨٣٦ - ١٨٦٨) •

المجلد التاسع عشر :

أوراق وتقارير رسمية متفرقة ذات صلة بشئون مصر (حوالى عام ١٨٣٨ - ١٨٤٠) وغير ذلك •

الأجزاء العشرون والحادى والعشرون والثانى والعشرون :

مفكرات كتبت حوالى ١٨٦٨ - ١٨٧٢ •

الجزءان الثالث والعشرون والرابع والعشرون :

ثلاثة أبحاث أو مسودات كتاب عن التسلسل الزمنى للأرض أو « نظام التسلسل الزمنى المصرى والانجلى على ضوء العلاقة النظرية بين الذراع المصرى وبين التغيرات المادية فى المنسوب السطحى فى مصر » •

ولكى تتمكن من تقويم المادة التى تتضمنها أوراق حكيان وأهميتها بالنسبة الى تاريخ مصر الحديث لابد لنا أن نعرض لشخصيته وأفكاره ونظراته ونشاطاته • فهو مهندس تمكن من دخول « الحريم » وكان على صلة بالكثيرين فى مصر وأوروبا • كما أنه اضطلع بعدة مهام فى مختلف نواحي مصر وبالتالي فانه كان على صلة وثيقة بالحياة الاجتماعية فى الصحارى

والأرياف والمدن ، هذا بالإضافة الى اشتراكه في مداولات رسمية ، ولهذا فان المناصب الرسمية التي تولاها والتعليم الذي تلقاه قد أضفيا عليه ادراكا وثيقا لأحوال مصر والتقلبات الدولية في عصره . هذا الى أن معرفته بعدة لغات وتجاربه الخاصه قد عمقت أفكاره وأثرت ملحوظاته وجعلت منه رجلا ذا نظرة عالمية خالية من التعصب القومي . ورغم تخصصه في العلوم التطبيقية فقد كان يتذوق الآداب (١٧) وينحوي منحى انسانيا . فقد أمضى في إنجلترا اثني عشر عاما شهد خلالها نمو الثورة الصناعية وظهور مبادئ التجارة الحرة والنزعات الليبرالية . وهكذا فانه كان يرى أن « التعليم وحرية التجارة من شأنهما أن يجعلا الناس يلبون دواعي العقل » ويحكمون أنفسهم بأنفسهم . وقد أفصح عن وجهة النظر هذه في مجلس رأسه عباس الأول وحضره نوبار وآخرون (١٨) . وكان يجذب اقامة مؤسسات عامة يستطع فيها الفقير والغنى والعامة والنبلاء - بل وأبناء الملك - أن يتلقوا نفس التعليم ويتمتعوا بنفس المزايا التي يتمتع بها أبسط الناس . وقد ذهب الى وجوب أن تحظى

(١٧) ذكر في عام ١٨٤١ أن درويشا فارسيا كان يجيء كل مساء الى « مندرته » ويمضي معه ساعة او ساعتين يقرأ معه خلالها ويعلق ويتحدث بالفارسية وأنه يعث يطلب الشاهنامة وبعض كتب التاريخ المشهورة (المخطوطة ٣٧٤٤٩ ، ص ١٥) .

(١٨) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ١٦ .

هذه المؤسسات بعناية خاصة من جانب الحكومة وأن تعتمد
(من حيث الصيانة والتعليم والملبس) على ضرائب يجرى
تحصيلها من الشعب كله (١٩) • ولما كان متأثرا بأفكار جماعة
الفزيوقراط فانه كان يحلم بعالم واحد تربطه المواصلات
والتجارة لمصلحة الانسانية جمعاء : « فالزراعة والصناعة هما
أهم مستلزمات التجارة • فنحن ننقل منتجات جزء من الأرض
الى جزء آخر تتحول فيه الى تلك الأشياء التي يجرى تصديرها
وتفيدنا في تلبية حاجتنا الملحة أو في الوفاء بكمالياتنا • فمن
الواجب أن تشكل الشعوب أسرة واحدة تتبادل المساعدة - فحين
يرتبط كل منها بالآخر يمكن تحقيق الهدف الأكبر من الطبيعة
بحيث يتسنى بالفعل اجراء الاصلاحات في كل بقاع
الأرض » (٢٠) •

وكان حكيمان أميل الى قيام نظام عالمي للتعليم بحيث
تتوحد المبادئ الأخلاقية في شتى أنحاء العالم ولا يمكن
السماح بأي نظام جديد دون اطلاع البشرية عليه • ولكن أحوال
الشرق لم تكن تسمح في ذلك الوقت بتطبيق مثل هذه الأفكار
التقدمية - فرغم اعجاب حكيمان بحكم محمد على الذي اعتبره
حكماً مستبدا مستنيراً فانه كان شديد الانتقاد للحكم

(١٩) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٨ ، ص ٣٧ •

(٢٠) نفس المخطوطة ، ص ٥٧ •

الشرقى : « فالمغتصبون فى الشرق نادرا ما يستلكون أراضيهـم
بصفة وراثية بحكم تنشئة أبنائهم باهتمام أقل مما يحظى به
حتى أبناء الأسر القديمة الذين يتمتعون بكرامة السيادة » (٢١) .
ومن رأيه أن الدبلوماسية الشرقية تتضمن قدرا من التظاهر
والخداع يفوق ما تتضمنه الدبلوماسية الأوروبية ، فلا ينجح
شئ نجاحا فعليا . . بالنسبة الى معظم السفراء مثل اهانة الرجل
وطرده بطريقة مهينة ، ولا يفوق ذلك سوى خداعه للتوصل
الى الهدف . وتاريخ الشرق ملىء بمثل هذه الأمثلة منذ عصر
كورش . والصعوبة الوحيدة التى تعترض قيام الشخص بعمله
على أحسن وجه دون صعوبات هى عدم اطمئنانه أحيانا الى اخلاص
رئيسه وبالتالى لا يتسنى التغلب على الشكوك المتبادلة
والاعتراض أمر مؤكد كما هو الحال فى الوزارات
الأوروبية » (٢٢) .

ومن الطبيعى أن يؤدى هذا الاتجاه الى تنديد حكىان
بالطغيان الذى كان يمارسه شيوخ البلد على صغار المزارعين فى
القرى (٢٣) . بحيث كان الفلاحون يعمدون الى ترك الزراعة
ويفضلون الدخول فى خدمة البدو أو يختبئون فى المدن حيث
يتحولون الى خدم أو ما شابه ذلك من أعمال . كما أدى به هذا

(٢١) نفس المخطوطة ، ص ٥٨ .

(٢٢) المخطوطة رقم ٣٧٤٥٢ ، ص ٣٨ بتاريخ ٢٦ مارس ١٨٥١

(٢٣) المخطوطة رقم ٣٧٤٤٩ ، ص ٩١ - ٩٢ بتاريخ ٢٨/١/١٨٤٣

الى مقت الطغيان الذى تشل لديه فى عباس الأول بوجه خاص بحيث خشى أن ينكل به مما دعاه الى طلب الحماية الانجليزية وهو ما سبق أن أشرنا اليه . وكان رجل الشارع يشارك حكيان نظرتة الى الحكم المطلق السائد فى مصر فى عصره - فحين سئل مكارى عن عباس أجاب بأنه كسول وقاس على الفقراء : « فهو يكلفهم بأعمال شاقة فى الصحارى ويكاد لا يدفع لهم من الأجر الا أقل القليل . كما صرح بأن كثيرا من مواطنيه يسوتون يوميا أثناء عملهم فى قصور الباشا . وكان الرجل من التعقل بحيث ذهب الى أنه كان من واجب سموه أن ينفق الأموال فى تحسين أحوال مصر (القاهرة) بدلا من القيام بالبناء فى الصحراء ، واستطرد قائلا أنه لو ألغى الوالى السخرة لغضنا الطرف عن سيئاته العديدة - فمن الظلم والقسوة أن يحرم الآباء من مساعدة الابن الوحيد الذى كانوا على استعداد لاقتدائه بألف قرش حتى لا يفقدوا معاونهم فى الأعمال الزراعية » (٢٤) .

وهكذا نجد أن الملاحظات الاجتماعية الواردة فى أوراق حكيان تلقى أضواء على أوضاع مصر السياسية والاجتماعية فى أيامه خاصة وأنه قد تنقل فى أنحاء عدة من البلاد واتصل بأنماط مختلفة من سكانها - فهو يصف أحوال البدو فى عهد عباس الأول على الوجه التالى : « ان عباس باشا يعتمد محاباتهم

(٢٤) المخطوط رقم ٢٧٤٥٢ ، ص ٢٦ بتاريخ ٦ مارس ١٨٥١ .

ويتغاضى عن أعمال التخريب التى يرتكبونها وعن انتهاكهم
للفلاحين . فمن المعروف أن عامر (أو أمير) الطحاوى قد سرق
حصانا ممتازا كان يمتلكه شيخ غنى فى البحيرة وهو يمتطيه
دون أن يعتريه أى خوف . وقد اشتكى الشيخ للحاكم ولكن
دون جدوى . وإن الخلع التى تمنح باستمرار لشيخ القبائل
المتوحشة إنما هى دليل على أن الوالى الحالى شديد الاهتمام
بكسب ولاء البدو وذو الطباع الخشنة الذين يفهمون تماما
السبب الكامن وراء دلالات الصداقة هذه ، ويزيدهم هذا
الضعف جرأة مما يجعلهم يعودون الى حرفتهم القديمة المستندة الى
التخريب . ومن ناحية أخرى فإن شيخ الفلاحين سيعودون الى
عادتهم الخاصة بقطع الطريق . وبإمكان الشيخ أباطة
(Abhassa) فى البحيرة أن يستدعى حوالى اثنى عشر ألف
رجل مسلح لمساعدته . وهؤلاء المشايخ هى نبلاء البلاد ، ومن
ثم فهم لا يبدون استعدادا لأن يزوجوا بناتهم للأتراك أو للسلطان
ذاته أو لأعرق بيوتات أوروبا . وهم يعتقدون أن لهم حق السرقة
داخل حدود أراضيهم ، ويقومون فى أحسن الأحوال بتحصيل
الأتاوات « (٢٥) ، ولما كان حكيان قد لمس نوعا من التحول
الاجتماعى الخاص بالعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين فقد
لاحظ أن عداء المسلمين للمسيحيين قد خفت حدته ولو أنه قد

(٢٥) المخطوطة رقم ٢٧٤٦٨ ، ص ٤٠ - ٤٢ .

حل محله شعور آخر أكثر قوة وهو الكره والغيرة والخوف من الأوروبيين والجماعات الدينية التي يفترض أنها تتعاطف مع الأوروبيين (٢٦) .

وحين يعرض حكيان للشخصيات نجده يصطنع التحليل الذي يأخذ في عين الاعتبار العوامل الاجتماعية والسيكلوجية، وهكذا يصف عباس الأول بأنه شاب له صفات كان من الممكن أن تفيده هو والبلاد فيما لو تلقى التعليم المناسب ولكن التعليم السيء الذي تلقاه واحاطته بأشخاص جهلة وأنانيين قد حولاه الى طاغية مجنون (٢٧) . وهو يعرض لبوغوص يوسفيان الذي قام بخدمة محمد على لأكثر من ثلاثين عاما على الوجه التالي : (٢٨) « كان بوغوص بك رجلا ممتازا في حياته الخاصة ولم يزه أحد في القدرة على انجاز المهام الرسمية وذلك اذا ما وضعنا في عين الاعتبار أنه كان مرءوسا لطاغية . ومن الممكن اعتباره من أعظم الوزراء الشرقيين لأنه ظل طيلة كل هذه السنوات يتمتع برضى طاغية وبلاط بتصف بالطغيان . وكان سر سياسته هو ألا يعمل بوحى من رغبته الخاصة وبهذا كان لا يجازف بشيء ، فكان لا يدلى برأيه للبasha بصفة شخصية كما كان يعترض على آرائه علنا بأي شكل من الأشكال » .

(٢٦) المخطوطة رقم ٢٧٤٥٢ ، ص ١٧ بتاريخ ٢ مارس ١٨٥١ .

(٢٧) نفس المخطوطة ، ص ٣٣٤ .

(٢٨) المخطوطة رقم ٢٧٤٤٩ ، ص ٢٣٥ بتاريخ رجب ١٢٥٩ هـ .

يضاف الى كل ما سبق أن أوراق حككيان تحتوى على رسوم وخرائط ومعلومات خاصة بمساكن مختلف قطاعات سكان مصر وملابسهم وعاداتهم . وأخيرا فلا يجب علينا أن نغض الطرف عن كون حككيان أول موظف في الادارة المصرية خلال القرن التاسع عشر يحتفظ بيومياته ومراسلاته وأوراقه الخاصة . ولاشك أن تسطيره معظم خواطره باللغة الانجليزية كان من نتائج اقامته في انجلترا وتلقيه تعليمه بها (٢٩) .

(٢٩) يتضح من سيرة حككيان اللاتينية التي كتبت في عام ١٨٢٩ خطأ ابراهيم أبو لغد حين يذكر في كتابه :

The Arab Rediscovery of Europe (Princeton, N.J., (1963), P. 69

أن رفاعة الطهطاوى كان المبعوث الوحيد الى أوروبا في عصر محمد على الذي سجن انطباعاته عن السنوات التي أمضاها في الخارج :

الموضوع الرابع

مذكرات نوبار باشا

قليلة هي المذكرات الخاصة التي سطرها من لعبوا أدوارهم في التاريخ العربي الحديث ، إذ ان عادة كتابة المذكرات الخاصة بصفة منتظمة لم تتأصل في تقاليدنا وخصوصا أن قلة نادرة من ساستنا هم الذين يقدرّون قيمة مثل هذه المذكرات بالنسبة الى الأجيال الصاعدة ، وأن معظمهم لا يحتفظون بأوراقهم الرسمية ومكاتباتهم بالشكل الذي نلمسه لدى كثير من المسؤولين في الدول المتقدمة . ويجدر بنا أن نتساءل عن أسباب هذا القصور : هل هي مرتبطة بنمط الحياة الشرقية الصاخب الذي قد لا يدع للمسئول فرصة لكي يخلو الى نفسه ويسطر خواطره بانتظام ؟ أم هي مرتبطة بعدم الشعور بالأمن واحتمال أن تؤدي المذكرات الخاصة الى متاعب غير منظورة اذا ما تبذلت موازين السلطة ؟ حقيقة أن بعض الشخصيات العامة قد نشروا « مذكراتهم » التي كتبوها من وحي الذاكرة بعد مرور وقت طويل على الأحداث التي عرضوا لها : الا أن مثل هذه « المذكرات » لا تعدو أن تكون ذكريات تلون الأحداث بألوان تبريرية على ضوء التطورات التي جرت وموقف المسئول منها .

هذا الى أن ايتباع الزمن قد يجعل الذاكرة تخون صاحبها فلا يكون دقيقا عن عرض ما يسجله - بالمذكرات بمعنى الكلمة يجب تسجيلها آليا على شكل يوميات منتظمة قد تطول وقد تقصر كما تستلزم المحافظة على المراسلات الخاصة التي قد تكشف ما لا تكشفه الأوراق الرسمية . وقد جرت عادة من خلفوا مذكرات خاصة من السياسة الغريين على الاحتفاظ بيومياتهم وأوراقهم وتسجيل وصية بالمكان الذي تحفظ فيه وبالمدة اللازم مرورها حتى يتاح للآخرين الاطلاع عليها ، وهي عادة نصف قرن يكون قد مات خلالها من وردت أسماءهم في هذه المذكرات ، وتكون سرية ما سجلوه قد اتفت أو كادت - ولو أن هذه المدة قد انكشفت شيئا فشيئا نتيجة لسرعة ايقاع الحياة وتطور وسائل الاعلام وقيام بعض الحكومات دوريا بنشر مقتبسات من أوراقها الرسمية بين وقت وآخر . بل ان المذكرات الخاصة لبعض المسؤولين المعاصرين قد أضحت وسيلة من وسائل التكسب .

ومذكرات نوبار باشا التي نعرض لها ليست مذكرات بمعنى الكلمة ، بل انها « ذكريات » سطرها في أواخر حياته خلال الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ (١) . موجهها إليها الى القارئ العام بل الى أسرته وحدها دون أن يفكر في

(١) توفي نوبار في باريس في ١٢ يناير ١٨٩٦ .

نشرها . ولعل هذا راجع ضسنيا الى محاولته تبرير مواقفه
للأبنائه وأحفاده ، لأن الدور الذى لعبه فى السياسة المصرية كان
مثار جدل وخصوصا أنه كان من أنصار التدخل الأجنبى فى مصر ،
وأنه تعاون الى حد كبير من سلطات الاحتلال البريطانى .
وسأقصر تعليقى على « ذكريات » نوبار على ملحوظات أوردها
فى مواضعها ثم أعقب عليها فى آخر الأمر ، مفضلا استهلال
عرشنا هذا بنبذة عن حياته .

ولد نوبار نوباريان فى أزميز فى أسرة أرمنية فى ١ يناير ١٨٢٥ .
وكان والده وكيلا لوالى مصر محمد على باشا فى أزميز أولا
ثم فى باريس . وكان الأرمن فى ظل الحكم العثمانى يشكلون
طائفة دينية (مللت) لها بطريقتها الخاصة المقيم فى استانبول ،
والمنتمى الى أعيان الأرمن الذين سيطروا على « الطائفة » فى
الوقت الذى كانوا يشغلون فيه وظائف عليا فى الحكومة
وخصوصا بعد أن كسرت الدولة شوكة اليونانيين على أثر ثورة
اليونان فى العشرينيات من القرن التاسع عشر . وكان التجار
الأرمن فى طليعة من أفادوا من التطور الصناعى والتجارى الجديد
الذى أصاب الامبراطورية العثمانية - وكان بعضهم يقوم باقراض
النقود فى حين أن البعض الآخر كان من الحرفيين والتجار ،
وكانت أغليتهم تقطن شرقى الأناضول فى حين أن أكثرهم تعليما
وتقدما كانوا يقطنون المدن الكبرى وخصوصا استانبول

وأزمير ، كما كان كثير من أغنيائهم يعيشون أبناءهم إلى أوروبا لتلقى التعليم العلماني الذي لم يكن متوفرا في الامبراطورية العثمانية حينذاك ، وليلعبوا دورهم في الوساطة التجارية والدبلوماسية نتيجة لاتقانهم بعض اللغات الأوروبية - ومن هؤلاء والد يوسف حكيان (٢) الذي كان مترجما لمحمد علي باشا وطلب منه أن يرسل ابنه (يوسف) لتلقى تعليمه في إنجلترا . وهكذا تلقى نوبار تعليمه الابتدائي في جنيف : ثم توجه إلى سورين - بالقرب من تولوز - في فرنسا حيث تلقى تعليمه بمدرستها الثانوية خلال الفترة الممتدة ما بين عامي ١٨٣٦ و ١٨٤٠ . وفي هذا العام الأخير توفي والده في مرسيليا مما اضطره إلى العودة إلى أزمير حيث أمضى بعض الوقت قبل أن يتوجه إلى مصر التي تولى فيها خاله بوغوص يوسفيان لفترة طويلة الاشراف على علاقات محمد علي الخارجية ونشاطاته التجارية . وبادر بوغوص إلى تقديم ابن أخته إلى الوالي في سراي رأس التين ، ثم أسكنه معه وعينه سكرتيرا خاصا له . وكان الانطباع الأول الذي تولد لدى نوبار بعد انتقاله من أوروبا إلى الشرق هو احساسه بالنقلة من العصر الحديث إلى العصور الوسطى الشرقية . ونستشف من مذكراته كم كان يرثي

(٢) راجع بحثي عن أوراق حكيان في

P.M. Holt (ed), Social and Political change, in Modern Egypt, (Oxford University press, 1968).

لبحال خاله الذى كان باستمرار يرتدى ملابس « الرعايا »
المسيحيين ويعيش فى عزلة تامة ولا يتوجه لمقابلة الباشا الا بعد
أن يتلو صلواته الأخيرة بحكم أن الأحداث التى عاصرها والمناظر
الدامية التى شاهدها قد أثرت كثيرا فى نفسيته - بل انه كاد
يفقد حياته نتيجة لاحدى سورات شك الباشا وغضبه . ومع
كل هذا فان بوغوص كثيرا ما كان يصارح الباشا برأيه فى
الوقت الذى كانت فيه نزوات الحكام وغضبهم تفضى الى الموت .

وفى عام ١٨٤٤ مات بوغوص فقيرا بل مثقلا بالديون ،
وشهد جنازته كثير من سكان الاسكندرية المصريين والأجانب .
وحين علم محمد على أن دفن بوغوص لم يتم باحتفال رسمى
اجتاحته نوبة غضب وأمر باخراج جثة بوغوص من القبر واعادة
اجراءات الدفن باحتفال يشهده كبار الموظفين الذين لم يشاءوا
فى السابق أن تحاط جنازة ذمى باحتفالات رسمية مما آلم
محمد على الذى كان يقدر خدمات بوغوص له طوال أكثر من
ثلاثين عاما . حقيقة ان أوامر محمد على بهذا الصدد لم تنفذ
بحذافيرها ، الا أن كبار الموظفين المسلمين شهدوا احتفالا
رسميا على روح بوغوص فى كنيسة الأرمن وهو ما لم يسبق
له مثيل .

وبعد وفاة بوغوص عمل نوبار مترجما لمحمد على الذى
منحه ثقته لاتقانه للغتين الفرنسية والتركية والمأه بالغة

الانجليزية ولتقديره للخدمات التي قدمتها له أسرته ، ويذكر نوبار أنه قرأ رسالة غير واضحة الخط كان الدوق دي مارمون قد أرسلها لمحمد علي ولم يستطع أحد قراءتها ، مما أدى الى ذبوع شهرته في حاشية الوالى بصفته متعلما يتقن كثيرا من اللغات . ونحن نعتقد أن نوبار يبالغ في وصف أهميته بالنسبة الى الوالى ، اذ ان اتساع الحركة التعليمية في عصر محمد علي الذي شهد انفاذ البعثات الى مختلف البلدان الأوروبية وخصوصا فرنسا ، ووفود عدد كبير من الأوروبيين الى مصر ، قد أمد حاشية الوالى بالكثيرين الذين يتقنون اللغات الأجنبية ويمكنهم ادارة مراسلات الباشا . ونحن لم نعر في الوثائق البريطانية التي رجعنا اليها بصدد أواخر حكم محمد علي والفترة القصيرة التي حكمها ابراهيم قبل وفاة والده على أية اشارة الى الدور الذي كان يلعبه نوبار لشاب في حاشية هذين الوالين . ولا يأتي نوبار في مذكراته بجديد حين يسجل أن محمد علي قد أفسح المجال لتقدم مصر المادى على النمط الأوروبي باستقدامه الخبراء والفنيين الأوروبيين (من أطباء ومهندسين وضباط بحريين) وتكريمه اياهم بقصد تشجيع رعاياه على أن يكرموهم بدورهم ، خصوصا وأن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية برغم تخلفهم ، كانوا لا يزالون يهتقرون الذميين ولا يسلمون بتفوقهم عليهم أو مساواتهم بهم وتولييتهم مناصب قيادية في أجهزة الدولة ، وفي القوات المسلحة . ويثنى

نوبار في مذكراته على اتجاه محمد علي الى مساواة المسلمين بالمسيحيين واستقدامه الخبراء من أوروبا وتخفيفه حدة الحواجز التي كانت لاتزال تفصل الشرق عن الغرب ، ويقر ما ذهب اليه معظم من تناولوا حكم محمد علي من أنه مصلح عظيم حول مجرى تاريخ مصر الحديث وأقام فيها دولة راسخة الأركان بعد أن كان قد تسلمها ولاية عثمانية فقيرة ومتخلفة، بحيث أصبح يشار اليه باعتباره مؤسس مصر الحديثة • حقيقة أن عهد محمد علي كان شديد الوطأة على شعب مصر الذي ضحي بالكثير في سبيل إقامة الدولة الحديثة ، وامثل لتوجيهات الباشا وشدته الا أن عهود الانتقال - بما في ذلك حكم محمد علي - قد لاتخلو من شدة مبعثها الرغبة في اختصار مدى التطور • وهكذا نجد نوبار يطلق على محمد علي (ص ٦٩ من المذكرات) صفة « المتبربر العبقري - «Ce barbare de génie» •

ويرثي نوبار لازدياد شكوك محمد علي وأوهامه في أواخر حياته وخصوصا بصدد ما تخيله من أن ابنه ابراهيم يتآمر للاستيلاء على الحكم وقد يلجأ الى الأساليب الشرقية فيدس له السم ليتخلص منه • وهذه الشكوك هي التي جعلت محمد علي يستغنى عن خدمات نوبار ويعهد بها الى ابنه ربما ليراقب اتصالاته بالقناصل • وقد اصحط نوبار ابراهيم - الذي دأبته الأمراض - في أثناء الرحلات التي قام بها الى أوروبا وتوطدت علاقاتهما في تلك الأثناء بحيث بثه

ابراهيم طموحاته فيما لو تولى حكم مصر • وفي باريس شرح
نوبار لابراهيم الآثار التي شاهدها بحيث أحرز اعجابه • وبعد
أن زارا لندن عادا الى مصر •

وفي خلال رحلة العودة أبدى ابراهيم شدة خوفه من طبيعة
استقبال والده له وخشيته هو الآخر من أن يتعرض للموت
بالسم • ثم توجه نوبار الى أزميز لقضاء بعض الوقت فيها ،
وحين عاد الى مصر (١٨٤٦) عين في منصب السكرتير المترجم
الثانى لمحمد على ، ثم رافق ابراهيم في زيارة ثانية الى أوروبا
ازدادت خلالها وطأة المرض عليه مما زاد في شكوكه وعصبية •
أما محمد على فقد كانت الفترات الأخيرة من حياته بمثابة مأساة
حقيقية : فقد اختلط عقله وازدادت شكوكه في ابنه ابراهيم وباتت
تمر به فترات من الجنون والخوف الحقيقيين ، كان يجهد خلالها
بالنكاء ولا يهدأ الا اذا نقل الى مسكن ابنته نازلى ، وازاء ذلك
فكر كبار الموظفين في اقامة مجلس للوصاية يتولى حكم البلاد
والكن ابراهيم رفض هذا الاتجاه وتوجه الى استانبول لكي
يضمن تنصيبه واليا • ولكنه لم ينعم بالحكم طويلا نتيجة لتدهور
صحته • وكان نوبار يسرى عنه حتى وقت متأخر من الليل بأن
يعيد الى مسامعه أخبار معاركه المظفرة • وخلال هذه الفترة
كان عباس حلمي - حفيد محمد على وولى العهد طبقا
لما نصت عليه الفرمانات نتيجة لكونه أكبر أفراد الأسرة

سنا - يخشى أن يقضى عليه مما جعله يؤثر الابتعاد عن مصر الى الحجاز . واشتدت آلام المرض على ابراهيم ، وفي النهاية توفي بين ذراعى نوبار (١٨٤٨) ، ولم يأسف عليه أحد لشراسته وقسوته . وبعد وفاة ابراهيم بثلاثة شهور لحق به والده . ويخصص نوبار الفصل السادس من مذكراته لرصد أهم اصلاحات محمد على في مجالات الزراعة والرى وادخال محاصيل جديدة .

وفي وثيقة هامة أرسلها قنصل بريطانيا العام في مصر الى حكومته في ٥ أغسطس ١٨٤٩ (١) تقرأ الفقرات التالية : « ان تعلق كل طبقات مصر باسم محمد على واحترامها له يشكل جنازة أفخم مما كان بإمكان حفيده أن يوفره (٢) . فالسكان المتقدمون في السن يتذكرون الفوضى التي أنقذ هذه البلاد منها ويتكلمون عنها ، في حين يقارن السكان صغار السن حكمه المتميز بالحيوية بحكومة خلفه التي يجرفها الهوى والتردد . وجميع الطبقات ، سواء من الأتراك أو من العرب يجمعون بصراحة على أن رخاء مصر قد مات مع محمد على أو - حسب مصطلحاتهم الشرقية - أن أنفاس مصر قد بارحت جسمها :

F.O. 78/804, No. 46 Murry to Palmerston.

(١)

(٢) أبدى عباس كثيرا من العقوق لجده - فلم يشترك في جنازته أو يصدر أمرا بإغلاق الحوانيت والمصالح الحكومية ولم يدع السلك القنصلى بهذه المناسبة .

وفي الحق .. لا يمكننا أن نذكر أن محمد علي ، برغم كل أخطائه ، كان رجلا عظيما . فحين نحكم على شخصيته لا يمكننا إطلاقا أن ننسى أنه ، دون أن يتمتع بميزة من نسب أو من ثروة ، قد شق طريقه الى السلطة والشهرة بشجاعته الفذة وبدأ به وذكائه . فحين تولى الحكم كانت مصر مقطعة الأوصال نتيجة للنزاعات والشيخ ، كما كانت تتعرض للنهب على أيدي عصابات جواله من المغامرين ، كما كانت مالياتها وتجاريتها مستنزفتين ، وفي كل محافظة كانت الحياة والأمل تحت رحمة أصحاب السطوة . كما لا يجب علينا أن نشدد في انتقاده حين كان يضطر أحيانا - بهدف القضاء على عوامل الشر والفوضى المستشرية لدى شعب لا يعترف بقانون آخر سوى القوة - الى اللجوء الى اجراءات تتصف بالقسوة والشدة . اذ يقر الجميع بأن محمد علي ، لو حكمنا عليه بمقياس كونه تركيا ، لم يتصف بالقسوة : اذ ان العقوبات التي نفذها كانت - مع بعض الاستثناءات القليلة - لازمة لأمنه أو للمحافظة على السلام العام ، وأخشى أن أشارك الكثيرين في التصريح بأنه - مثل معظم من أطلق عليهم لقب « الأكبر » - كان مفرطا في حبه للشهرة والسلطة ، واو أن مطامحه لم يلوثها الجشع . ورغم شدة غضبه الا أنه لم يكن يستمر طويلا .

« ومن النادر أن تصل الى مسامع المرء في أية ولاية من

ولايات الإمبراطورية العثمانية فقرة تشبه الفقرة التالية :
إذا ما سمح لى لله فانتى أتنازل بكل سرور عن عشر سنوات
من حياتى لأضيفها الى حياة باشانا العجوز ، ولكننى علمت أن
أكثر من شخص قد فاهوا بهذا التصريح خلال مرض محمد على .
وبالإضافة الى ذلك فمن واجبنا ، كأوروبيين ، أن نتصف ذكراه
بأن تذكر أن المسافر أو الرياضى أو عالم النبات والحيوان
الانجليزى كان يستطيع خلال عدة سنوات - فى الوقت الذى
لم يكن يستطيع المسيحى فيه أن يتجول فى حلب أو دمشق أو فى
أى مدينة خاضعة لحكم السلطان المباشر دون أن يتعرض للأذى
أو الإهانة - أن يتجول عزلا من السلاح فى وادى النيل
والصحارى المجاورة له ، وأن يضمن سلامة شخصه وأملاكه
بالصورة التى يتمتع بها فى حديقة هايدبارك فى وضع النهار » .



ويتعرض نوبار فى مذكراته لشخصية عباس الأول
وشكوكه وما رواه الأورويون عن هواجسه واستبداده وتنحيته
للأشخاص الذين ارتبطوا بالعهد السابق ، ولكنه مع ذلك يشيد
ببنائه للسكة الحديدية التى وصلت الاسكندرية بالقاهرة وقبض
لها أن تمتد الى السويس فى عهد خلفه سعيد ، كما يشيد بأعادته
الأراضى الى الفلاحين الذين أرغموا على تركها . ورغم شك
عباس فى نوبار لشدة ارتباطه بعمه ابراهيم فانه لم يتردد فى

الافادة من خدماته (٥) واصطحابه الى استانبول حين توجه اليها لتسلم فرمان توليته حسب العادة المقررة . ويذكر نوبار أنه ناقش في العاصمة العثمانية مشروع مد السكة الحديدية الذي عارضته السلطات التركية على اعتبار أنه سيفصل مصر عن الدولة العثمانية ويلحقها بانجلترا وأوروبا .

وقد اختلف عباس عن جده وعمه في سعيه الى هدم النفوذ الأوروبي في مصر وتوثيقه علاقات البلاد بالدولة العثمانية . . خصوصا وأنه كان يعتقد أنه اذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن « للخليفة العثماني » لا للأوروبيين . كما كان يرى أن الصراع بين السلطان ووالي مصر لن يفيد سوى الأوروبيين ولن يؤدي الا الى الانهيار التام للامبراطورية العثمانية بما فيها مصر ، خصوصا وأن مصر لم تكن في رأيه تتعدى كونها ولاية صغيرة لا امبراطورية كما كان عليه الحال في عهد جده ، وبالتالي كان يتجه الى أن تتمشى مؤسساتها ونظمها مع حجمها ودخلها . ومن ثم سعيه الى قطع دابر المؤامرات السياسية وطرد الطفيليين الذين رأى أنهم امتصوا دماء مصر في العهد السابق ، خصوصا وأنه كان يمتد اتجاه جده الى احاطة نفسه

(٥) عينه عباس (يونيو ١٨٥٠) مديرا للإدارة الصحية خلفا لنيوسف حككيان الذي نفاه إلى الصعيد في نفس الوقت الذي واصل فيه نوبار شغل منصب المترجم الثاني للوالي .

بعض الأوروبيين الذين كانوا يقيمون في مصر أو يقدون إليها باعتبارهم حلقة الوصل بينها وبين العالم الخارجى . وهكذا اتجه عباس الى العزلة والى احاطة نفسه بأتباعه المخلصين وحدهم ويبرر ذلك بقوله : « لست تاجرا ولن يفيدنى هؤلاء السادة - فاذا ما شغلوا بتجارتهن فلن أطلب منهم ما يتعدى ذلك ، واذا ما اعتدى عليهم أحد فسأوفر لهم حمايتى ، وسأمنحهم مساندة خاصة اذا ما احتاجوا إليها . . ولا أود - كما كان الحال أيام جدى . . - أن يكون قصرى بمثابة مقهى يقد اليه الناس الذين ليس لديهم ما يشغلهم لكى يتجاذبوا أطراف الحديث » . أما علاقاته بالسلك القنصرى فلم تشبها شائبة ولكنها لم تصل الى مستوى العلاقة الوثيقة التى بلغت أيام محمد على ، ومن ثم البرود الذى اتصف به استقباله خصوصا وأن معظم رجال السلك القنصرى كانوا من التجار . وفى عهده أنشئت ادارة للجوازات فى الاسكندرية لأن الاضطرابات التى عمت الجانب الأوروبى من البحر المتوسط شجعت عددا من الأشرار ومن لا مستقر لهم على أن يقدوا الى مصر للاقامة فيها (١) . ولم تكن علاقة عباس بكبار الموظفين على ما يرام ، كما أبعد عن الخدمة من كان يعتبرهم أنصارا لفرنسا التى

— F.O. 708/804, no. 27 dated 6 May, 1949 from (١)
Murray to Palmerston.

سأنت جده ، بل لقد ألغى المؤسسات التي كان يديرها فرنسيون وأجرى تعديلات كثيرة على إدارات الدولة دون أن يكون لديه من الخبرة السياسية أو التعقل ما يجعله يفرق بين الغث والسمين (٧) . ويسجل نوبار أنه طرد من القاهرة والاسكندرية كثيرا من السحرة وضاربي الودع ومن على شاكلتهم وتفاهم الى الصعيد أو الى السودان .

وفي رأى نوبار كان عباس تجسيدا « للسيد العظيم Le grand Seigneur » أو للأمير الشرقي الحقيقي : فقد كان يعيش منعزلا متفردا ويصدر أوامره التي كان يتوقع أن تكون موصفا للطاعة العمياء - وقد صرح لنوبار بما يلي : « بإمكانى أن أعمل كل شيء ويشبهنى الجميع فى أنهم يمكنهم عمل كل شيء » . « أنا وزير ابن وزير وحفيد وزير . ولست تاجرا مثل جدى أو عمى ، وإذا ما كان على أن أحمى التجار فلست ملزما بتقليدهم » . ويصف نوبار عباسا بالكرم فى حدود المعقول ، ويضرب مثلا على ذلك أنه دفع ديونه (نوبار) ويعلل ذلك بأنه لم يكن يجب أن يكون أحد حاشيته فى حاجة الى المال ، لأنه فى هذه الحالة يكون تابعا لذائبه لا لعباس . . . ورغم ما يؤكده نوبار وغيره ممن تعرضوا لحكم عباس من أنه

كان غريب الأنوار (٨) ومثارا لرعب الشعب ، الا أنه يقر بأن المصريين لم يعانون في عهده من الضغوط المالية والاقتصادية التي أثقلت كاهلهم في عهد جده . وقد أغلق عباس المصانع والمدارس المرتبطة بالجيش ، وذلك لادراكه أن شراء المصنوعات من أوروبا مباشرة أرخص ثمنًا وأحسن نوعية . كما ألغى احتكارات الدولة (٩) التي فرضها جده بحيث توفرت للفلاح حرية بيع محاصيله للأجانب تقدا ولم يعد مضطرا لدفع الضرائب عينا بعد أن توفرت له النقود .

ويندد نوبار في مذكراته في أكثر من موضع بالسخرية ذلك النظام الذي عرفته مصر منذ أقدم العصور للقيام بالخدمات العامة وخصوصا ما يتعلق منها بمقاومة فيضان النيل بتعليق الجسور وتقوية شواطئ النهر وإقامة السدود والقناطر والقنوات ، ثم امتد ليشمل كل الأعمال العامة التي تضطلع بها الدولة والحاكم . وكان الفلاح المصري لا يتقاضى أجرا عن القيام بهذه الأعمال ، ولا يصرف له غذاء أو يكرم اهتمام

(٨) يقال أنه كان يحفظ في قصره ثمن مستأنس كان يخيف به القناصل الأجانب .

(٩) لكي تضعف بريطانيا الأساس الاقتصادي الذي ارتكز عليه حكم محمد علي عقدت اتفاقية تجارية مع الدولة العثمانية (١٨٣٨) نصت على حرية التجارة داخل إمبراطوريتها . ويخطئ نوبار حين يذهب (ص ٨٢ - ٨٣) إلى أن هذه المعاهدة قد وقعت في عام ١٨٣٦ .

بأحواله الصحية ، بل انه كان أجيانا عرضة للجلد بالكرباج .
ويربط نوبار (ص ٨٣ - ٨٤) بين السخرة والكرباج وبين
الاستبداد الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور ويفسر ذلك
بالنظام الزراعى الذى جعل حاكم البلاد يركز السلطة فى يديه
لكى يتسنى له الاشراف على توزيع مياه النيل ومقاومة الفيضان
واقامة نظام رى الحياض المشهور . وبطبيعة الحال لم يعد
هذا النظام يتشى مع المبادئ الانسانية التى عرفها القرن
التاسع عشر - فقد ندد به الأحرار من الانجليز بوجه خاص
وجعلوا منه منطلقا لمناسبة نظام محمد على العداء ، كما أنه
كان مناقضا لروح الاصلاحات التى شهدتها الدولة العثمانية
فيما عرف باسم « التنظيمات الخيرية » التى كانت تهدف
فيما تهدف الى تحديث الدولة وكسب مساندة الدول العظمى
- وبريطانيا بوجه خاص - لها فى مواجهة أعدائها .

وقد استولى عباس على الاقطاعيات التى وزعها محمد على
على أسرته وحاشيته التى كانت تركز على الائتراك والشراكية ،
مما جعل كل هؤلاء يهاجرون الى استانبول حيث شكلوا حزبا
مناوئا لعباس - فطالبه أبناء وأحفاد محمد على بأن يرد اليهم
ميراثهم من أرض ومجوهرات - ومن ذلك اقطاعيات محمد على
التي بلغت ٤٠٠٠٠٠ فدان ، كما طالبوه بأن يرد اليهم نفقات
اصلاح هذه الأراضى بما فى ذلك المباني التى أقيمت عليها

والأشجار التي غرست فيها • وأصر عباس على موقفه وذهب الى أن الأموال التي أنفقها محمد على وأنفقوها هم كانت في الأصل ملكا للحكومة التي يحق لها أن تستردها •

وواصل نوبار العمل مع عباس باعتباره سكرتيرا مترجما ثم مديرا لإدارة التفتيش الصحى • ورغم أن الوائى لم يعينه وزيرا للخارجية - إذ أن مصر ، باعتبارها ولاية عثمانية ، لم يكن يحق لها أن تكون لها سياسة خارجية مستقلة فى حين كان يمثلها فى الخارج سفراء الدولة العثمانية - إلا أنه كان يضطلع بأعمال تتصل بعلاقات الولاية المحدودة بالخارج ، خصوصا وأن الدولة العثمانية حاولت أن تطبق فى مصر الإصلاحات المرتبطة بالتنظيمات الخيرية التى تضمنت وعد السلطان بإقامة العدالة فى أملاكه وتحديد كمية الضرائب وتنظيم تحصيلها وتأمين المرء على حياته وماله وعرضه ، كما تضمنت تحديد مدة الخدمة العسكرية • وكان عباس يرى أن تحويل ملفات حالات الإعدام الى استانبول للحكم فيها من شأنه أن يهدد الأمن والنظام فى البلاد على اعتبار أن سرعة تنفيذ الأحكام من شأنها أن تردع المذنبين • لهذا قاوم تطبيق التنظيمات فى مصر إلا إذا عدلت بحيث تتمشى مع عادات البلاد وتقاليدها وما جرى به عرف الولاية فيها • وأرسل نوبار الى استانبول للتفاوض مع

الباب العالى بشأن هذه المسألة (١٠) . وفى العاصمة العثمانية اتصل نوبار بالسفير البريطانى الذى كان يتمتع بنفوذ قوى فى الدوائر العثمانية مبعثه قوة شخصيته ودفاع بلاده عن الدولة فى وجه طموحات محمد على ومساندتها لبرنامج الاصلاحات التى تضمنتها انتظامات الخيرية ، وذلك كى تستطيع الدولة أن تقف على قدميها وتقاوم الضغط الروسى وتوفر حاجزا قويا فى وجه التوسع الروسى صوب الهند والمياه الدفيئة (١١) . ونفذ نوبار فى الآستانة مهمته على خير وجه وحصل على مساندة السفير البريطانى لموقف عباس بشأن مسألة (القصاص) التى سنويت لصالحه . ويبدو أن نوبار تناقش فى استانبول مع السفير البريطانى حول مشروع الخط الحديدى بين الاسكندرية والسويس ، وهو المشروع الذى كان قنصل بريطانيا العام فى مصر (مرى) قد عرضه على الوالى فى بداية حكمه تنفيذا

(١٠) قدم التجار فى الاسكندرية والقاهرة ومواطنون آخرون من لوى الحيشية عريضة الى القنصل البريطانى العام سجلوا فيها احتجاجهم على قرار الباب العالى الخاص بحرمان الوالى من حق تنفيذ حكم الاعدام فى المجرمين الذين ادينوا قانونا بحكم عليهم بالموت . وقد طالبت العريضة ببقاء هذا الحق فى يد الوالى محافظة على الأمن وتاسدوا القنصل العام أن يلتزم من السفير البريطانى فى استانبول - سير - سرافورد كاتنج - أن يسعى الى تأجيل اتخاذ قرار بصلح هذه المسألة حتى تبحثها الحكومة البريطانية .

— F.O. 78/916, Encl. copy in no. 4 dated 24 (١١)

January, 1852, from Murray to Granville

لتعليقات حكومته (١٢) ، وحين عاد نوبار الى مصر نصح عباس بتنفيذ المشروع وبين له أنه سيفيد التجارة والمواصلات الأوروبية ويساعد على تطوير الادارة المصرية بحيث تحصل البلاد على عطف الرأى العام الأوروبى مما يساعد في نزاعاتها مع الباب العالى . واقتنع عباس بوجهة نظر نوبار وتفاوض في هذا الشأن مع قنصل بريطانيا العام ، وأرسل نوبار الى لندن للتفاوض مع المسؤولين البريطانيين ، ونجحت المفاوضات وبدى في مد الخط الحديدى الذى ربط الاسكندرية بالقاهرة في عهد عباس ثم أكمل في عهد خلفه سعيد .

ورغم ما تواتر عن كره عباس للأرمن في أواخر عهده (١٣) ، فانه عهد الى نوبار وأخيه استيفان بتمثيله له في برلين وفينا ، ولم يسر وقت طويل على رحيل نوبار الى فينا حتى وصله خبر موت عباس . وفي الفصل العاشر من مذكراته نجده يسرد مختلف الروايات التى جرى تداولها بهذا الخصوص - هذا برغم أن الطبيين الايطاليين الذين فحصوا جثته أرجعوا وفاته الى نوبة من

.. F.O. 78/804, No. 3 from Murray to Palmerston, (١٢)
dated 16 Jan., 1849.

— F.O. 78/919. no. 30 Green to Clarendon, dated (١٣)
19 Nov., 1858.

الصراع (١٤) • وعلى أى حال فقد أدت وفاة عباس الى الغاء تمثيل مصر فى برلين وفيينا واعفاء نوبار من الخدمة باعتباره أحد رجال عباس • ولعل هذا هو السبب الذى جعله يتصدى للدفاع عن عباس وسياسته ، فيصف عصره بأنه يسجل مرحلة من مراحل تطور مصر ، ويفند وجهات نظر من هاجموا ، مسجلا أن عصره الذى لم يعرف عنه الكثير قد تعرض للنقد الشديد وأنه كان موضعا للتجنى والأحكام الخاطئة — فقد ساد الأمن بالشكل الذى لم تعرفه مصر حتى ذلك الوقت ، كما يمتدح تخفيضه لنفقات الدولة وشدة حرصه على مصالح البلاد • ويمكننا أن تبين حقيقة حكم عباس بمقارنة ما سجله نوبار بما كتبه قنصل بريطانيا على أثر وفاة عباس (١٥) — فقد أكد حمق سياسته وتكديسه الأموال فى خزائنه مما تسبب فى افلاس الدولة ، وسجل أنه كان يبدى ميلا طفوليا الى البناء والمفروشات مما جعله ينفق كثيرا من المال ، فى الوقت الذى لم يكثر فيه بالادارة العامة وبمرتبات الموظفين ، بل انه وصل الى حد

— F.O. 78/1036, no. 35, Bruce to Clarendon, (١٤)
dated 17 July, 1854.

ويؤكد بروس (فى رسالته رقم ٣٩ المؤرخة ١٣ أغسطس ١٨٥٤) أن عباسا لم يمت مقتولا وأن أطباءه كانوا يتوقعون اما أن تداومه نوبة الصرع فى أى وقت أو يصاب بالجنون ، واستدلوا على ذلك بقسوته الشديدة فى اواخر هذه وانتفلات أعصابه .

(١٥) الرسالة رقم ٣٩ السابقة .

الامتناع عن دفع مرتبات الموظفين والجيش والخدمات العامة ويعزو اتجاهاته الى كونه الوحيد في أسرة محمد على الذى لم يتلق تعليما أوروبيا أو يلم بلغة أوروبية أو يتوجه الى أوروبا ولو مرة واحدة بحيث لم تكن لديه أية فكرة عن حضارتها .
ويضيف الى ذلك أن عباس قد تربى على الطريقة التركية حيث
عاش الخدم الذين لقنوه كيف يكره أوروبا .

ورغم انحياز نوبار الى عباس حين قيم عهده ، فإنه كان على العكس من ذلك شديد النقد لخلفه سعيد الذى تعرضت مصر فى عهده للغزو والانتهاك على أيدي العناصر الأوروبية التى تدفقت عليها وكل همها الكسب السريع بأى ثمن . ويشير نوبار الى الفوضى التى أحدثتها هذه العناصر فى بلاط الوالى وفى الإدارات الحكومية وفى أوضاع المصريين بوجه عام ، ويعزوها الى شخصية الوالى الذى يكرر نوبار فى أكثر من مناسبة أنه كان يفتقر الى احترام الذات وأنه كان يعشق المظاهر ويجب أن يكون موضعاً للاطراء - فقد اهتم بالجيش وبالاستعراضات العسكرية وأتقن الأموال بسخاء على شراء ملابس فاخرة للضباط والجنود وإقامة المعسكرات التى كانت بعض خيامها من الحرير الخالص .

وكان سعيد قد استدعى نوبار من فينا وعينه رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم مديرا لإدارة الترانزيت والسكة الحديدية . والى

هنا يكون نوبار قد اكتسب ثقة أربعة من الولاة • ويعلق
القنصل البريطانى على تعيين نوبار فى منصبه الجديد على
الوجه التالى (١٦) : « انتى أعتبر اختيار نوبار بك بوجه عام
أمرا مرضيا جدا — فلما كان قد ولد رعية للباب العالى فانه
يجمع بين ذكاء الأوروبى وتعليمه وبين المعرفة التامة بالأتراك
ولغتهم • ولما كانوا يعتبرونه واحدا منهم ، فان ذلك يوفر
تغلبا على صعوبة كبيرة ، ولولا ذلك لكان هذا التعيين مصدرا
لغيرة الأتراك الذين اعتقدوا أنهم أرغموا على وضع أجنبى
على رأس واحدة من أهم ادارات الحكومة خصوصا وأنهم
يحظون بقدر كبير من الرعاية • ولدى معرفة كافية بالصعوبات
التى تواجه مدير الترانزيت والسكة الحديدية فى مصر بحيث أشعر
بشئ من القلق بشأن نجاح المدير الجديد • وسأسعى باستمرار
الى أن أبذل له كل مساندتى الرسمية — اذ من سوء الحظ
أنه من المؤكد أن الموظفين الأتراك لا يمكنهم أن يثقوا على
أقدامهم فى وجه المؤامرات والضغط المستمرة التى تواجههم
بدون الميزة التى يوفرها التدخل الأجنبى — ولدينا مصلحة حيوية
فى أن تكون ادارة المواصلات الحديدية مرضية بحيث يكون
تدخلنا أمرا مشروعا » •

— F.O. 78/1814, no. 92, Green to Clarendon, (١٦)
dated 22 dec., 1857.

وأول ما لاحظته نوبار لدى عودته الى مصر ازدياد أعداد الأوروبيين وديب الحيوية في أبناء البلاد الذين زال عنهم الخوف الذي خيم عليهم في عهد الوالى السابق ، بحيث لم يعودوا يخشون التعبير عن آرائهم بحرية ، وبحيث مالوا الى الخروج للنزهة . كما أن نشوب حرب القرم التى استمرت ما بين عامى ١٨٥٣ ، ١٨٥٦ قد تسبب في انتعاش البلاد بسبب ارتفاع أسعار الحبوب الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه بحيث لم يعد الحكام يصطنعون القسوة في تحصيل الضرائب وبحيث ازداد ثراء الملاك . وقد شجعت الحرب التجار اليونانيين والمشاركة على التغلغل في الصعيد خصوصا وأن سعيد قد أكد حرية التجارة التى شهدها عصر عباس كما أكد حرية تملك الأراضى التى بدأت أيضا في عهد سلفه . ولكنه كان يضيق بالشئون الادارية ويحيط نفسه بأشخاص عديمى القيسة والشخصية خصوصا وأنه كان يعتبر نفسه رجلا عسكرية لا يحترم الا المسائل المتصلة بالشئون الحربية وحدها ، مما جعل المديرين وحكام الأقاليم يحذون حذوه . كما كان يرحب بثناء المقيمين الأوروبيين في البلاد عليه ووصفهم له بأنه لبرالى ذو أفكار عالية . ورغم ذلك فإن نوبار يسجل أن أمور مصر سارت على ما يرام بدون تدخل السلطة المركزية وأن هذا يثبت عدم صحة الفكرة الذاهبة الى ضرورة حكمها بالشدة وبالسخرة والكرباج .

الا أن ازدياد تدفق العناصر الأوروبية على البلاد قد
أثار مشاكل لا حصر لها كانت ناتجة عن الامتيازات الأجنبية
القديمة التي منحتها الدولة العثمانية للأجانب المقيمين في أراضيها
منذ عصر السلطان سليمان القانوني (في القرن السادس عشر) •
فطبقا لهذه الامتيازات كان الأجنبي لا يحاكم إلا في القنصلية
التابع لها ولا تنطبق عليه القوانين المحلية المستقاة من الشريعة
الإسلامية ، كما كان مسكنه لا يفتش ولا يتعرض للقبض عليه
إلا بأذن من قنصليته ، مما ساعد على التهريب والاجرام والتستر
على المجرمين المحليين والضغط على الحكومة المصرية وابتزازها
بالتهديد والوعيد والحصول على تعويضات وهمية على أيدي
القناصل الذين كان معظمهم من التجار عديمي الذمة والشرف •
ويصف قنصل بريطانيا العام هؤلاء القناصل على الوجه
التالي : (١٧) « ان القناصل العموميين الذين يقبضون مرتبات
هم التابعون لفرنسا والنمسا وبروسيا واليونان وأسبانيا
والولايات المتحدة وسردينيا وإنجلترا وروسيا • أما القناصل
العموميون الذين لا يقبضون مرتبات ويعملون بالتجارة فهم
قناصل هولندا وبلجيكا وتسكاينا ونابولي • ومعظم هؤلاء
السادة ليسوا حتى من مواطني البلدان التي يمثلونها (ومن

— F.O. 78/1222, no. 13, from Bruce to
Clarendon, dated 4 April, 1856.

(١٧)

ذلك أن قنصل نابولي العام مشرقى عادى أمكنه أن يحصل ثروة) فى حين أن بعضهم قد اشتروا تعيينهم مقابل دفع مبلغ من المال - والكل قد سعوا الى الحصول على مناصبهم لا من أجل مراكزها ، بل من أجل الفرص التى توفرها لاستغلال المشروعات الحكومية . وهم لم يتلقوا أى تعليم يؤهلهم للمهام القانونية التى يطلب منهم الاضطلاع بها ، ومن الطبيعى أن يسعوا الى اقامة علاقات طيبة بالحكومة المحلية وأن يستغلوا لمصلحتهم الخاصة ما يوفره لهم منصب القنصل العام من سهولة الاتصال بالوالى » .

وتتضمن مذكرات نوبار نماذج عدة للتعويضات الوهمية المبالغ فيها التى أرغمت الحكومة المصرية على دفعها نتيجة للارهاب الذى فرضته بعض العناصر الأوروبية ، متحالفة مع القناصل ، على سعيد الذى اتصف بالتجبر مع المصريين والضعف أمام الأجانب . وهكذا كانت الامتيازات الأجنبية فى عهده بمثابة رأس الحربة لذلك الغزو الخاطف لمصر بحكم أن الأجانب عمدوا الى اغراء الحكومة المصرية ، بصفتها المنتج الأكبر والوحيد فى مجتمع لم تعبد أرضه بعد للاستغلال الصناعى والتجارى . وبمرور الزمن لم يعد الأمر خاصا بقناصل يتكسبون أو يتحكمون ، بل انه ارتبط بأوضاع اقتصادية

واجتماعية تنسرب من الغرب الى المجتمع الزراعى المصرى
وتتخذ فيه مكانها وتفرض عليه قوانينها •

ومن نتائج ضعف سعيد مع الأجانب منحه امتياز قناة
السويس لصديق صباه فردنان دلسبس دون أن يحتاط ضد
ما تضمنه الامتياز من اقيات على البلاد وحكومتها • فقد تعهد
سعد لدلسبس بالتنازل لشركة قناة السويس عن جميع الأراضي
اللازمة لحفر القناة الملحة وبأن يحفر قناة للمياه العذبة من النيل
الى منطقة القناة وأن تتنازل الحكومة كذلك عن الأراضي
اللازمة لها ، وهى مساحات شاسعة أخذت دون مقابل • كما
تعهد بوضع العدد الكافى من الفلاحين تحت تصرف الشركة
لتشغلهم بمعرفتها وتحت ادارتها فى أى نوع تريده من الأعمال
والأشغال العامة (١٨) ، وأعفيت واردات الشركة من دفع الرسوم
الجمركية المستحقة عليها • وأثبت نوبار أنه ضد كل عمليات
الابتزاز هذه ، فقد تنبه الى مساوئ التدخل الأجنبى وحاول
أن يتصدى له • فبعد تعيينه مديرا للسكة الحديدية حاول
أن يصلح أوضاعها المضطربة وتصدى للاضراب الذى قام
به الميكانيكيون الأوروبيون واستبدل بهم ميكانيكيين مصريين ،

(١٨) كانت الحكومة تسوق للشركة للعمل فى كل شهر حوالى عشرين ألف
عامل ، وقدر أن مثل هذا العدد من العمال كانوا يساقون فى نفس الوقت
فى الطريق من بلادهم الى منطقة العمل ومثلهم يجمعون فى بلادهم تأهباً للرحيل ،
فيكون المجموع حوالى ٦٠ ألف عامل كل شهر •

وذلك رغم احتجاجات القناصل ومخاوف سعيد كما خلص الإدارة من التدخل الأجنبي وقلل من اللجوء الى السخرة في أعمالها . وحين اضطر سعيد الى الاقتراض نتيجة لاسرافه حاول بنك الكوتتوار دسكونت Comptoir d'Escompte الفرنسي أن يكون ضمان القرض على شكل اشراف على مالية مصر . الا أن نوبار رفض تنفيذ طلب سعيد الخاص بكتابة خطاب بهذا الصدد . وحين ازدادت اجراءات الابتزاز من جانب الأوروبيين لأموال مصر والمصريين على شكل تعويضات . اقترح تشكيل لجنة تحقيق أوروبية لحسم الخلاف ، وتم تشكيل اللجنة بالفعل ولو أنها لم تنجز الكثير بسبب تحيز أعضائها .

وفي عام ١٨٦٢ اصطحبه سعيد الى باريس ولندن . وفي العاصمة البريطانية تباحث مع لورد بالمرستون حول قناة السويس ، كما ناقش فكرة انشاء محاكم مختلطة (١٩) تقضى على فوضى القضاء القنصلى ويشترك فيها قضاة مصريون

(١٩) حاول قنصل بريطانيا العام أن يقنع عباس الأول بانشاء محاكم مختلطة .

F.O. 78/804, private letter from Murray to Palmerston, dated 6 April, 1849.

ويحتوى ملف وزارة الخارجية البريطانية ٨٤٠/٧٨ على كثير من الوثائق التى يشتمل منها سمع بريطاني ، فى كل من القاهرة واستانبول ، الى اقامة مثل هذا النوع من المحاكم .

وأجانب في حسم القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالأجانب .
وكان نوبار مقتنعا بأن استقلال مصر لم يكن محصورا في
هذا الامتياز أو ذاك الممكن الحصول عليه من الحكومة
العثمانية ، بل في زيادة قوة مصر بتحسين ادارتها وهو أمر
لا يتسنى تحقيقه ما دام الى جانب الحكومة المصرية سبع عشرة
قنصلية ينتمى اليها ١٥٠.٠٠٠ روبي وتتمتع كل منها بسلطة
تضاهى سلطة حاكم مصر ماديا وأديا وتعرقلها في كثير
من الأمور . وكان خير علاج في رأيه هو جمع المحاكم
والسلطات القضائية العديدة في مكان واحد يخضع له الجميع
على السواء دون تمييز أو استثناء . ومن ناحية أخرى كان نوبار
مقتنعا بأن خير نظام للحكم في الشرق هو الحكم المطلق بشرط
أن يخضع الحاكم لسلطة القانون المستند الى دعامة أخرى
مستقلة عن الحاكم وأقوى منه وذلك بفرض عنصر أوروبي على
القضاء المصري بحيث لا يخاطر الحاكم بتحديه خوفا من الدول
الأوروبية (٢٠) . وفي طريق العودة الى مصر ناقش نوبار مع
السفير البريطاني في الأستانة - سير هنري بلور - موضوع
قناة السويس . وكانت بريطانيا منذ البداية تعارض المشروع
وضربت على الوتر الحساس حين لفتت نظر الباب العالي الى

(٢٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى

١٨٨٢ ، ص ٢٠

خطورة انشاء هذا الطريق المائى الذى قد يؤثر على نظام الدفاع عن مصر بحيث يتوقف ارتباطها بالدولة العثمانية على حسن نيات الوالى الذى قد يفيد من التسهيلات المادية التى يوفرها له حفر قناة السويس فيخلع ولاءه للباب العالى ويعلن استقلاله مدفوعا الى ذلك بأطباعه الشخصية أو بتحريض أى جهة أخرى . كما وجهت نظر انساسة الأتراك الى أن سعيد قد أرفق بعقد الامتياز الأول خطابا أقر فيه أن عقد الامتياز ذاته يجب أن ينال موافقة الباب العالى (٢١) . ورغم ذلك فقد كان نفوذ دلسبس ، المستند الى تعضيد الحكومة الفرنسية ، يجرف كل شىء أمامه خصوصا وأنه كان يباشر نفوذا شخصيا قويا على الوالى الذى لم يعبأ بمعارضة بريطانيا بحيث أن مياه البحر المتوسط ، حين وفاته ، كانت قد جرت حتى بحيرة التمساح . وسيبقى نوبار فى عهد الخديو اسماعيل الى التصدى للشروط المجحفة التى تضمنها امتياز القناة دون أن يقضى على المشروع برمته .



أما القسم الرابع من المذكرات الذى يشغل أكثر من نصف حيزها ، فهو يتناول عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ويمكن اعتباره أهم أقسام مذكرات نوبار . فقد تقلب نوبار فى

(٢١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو

اسماعيل ، ص ٢١ - ٢٢ .

عهد هذا الحاكم في عدة مناصب هامة فرض طابعه عليها واتخذ فيها عدة قرارات هامة واستطاع اقناع اسماعيل بالموافقة عليها واختلف معه بصدد ما أدى الى اعفائه من منصبه عدة مرات ليعود اسماعيل الى تعيينه من جديد لشدة حاجته اليه. وقد شغل نوبار في عهد اسماعيل الحقائب التالية : وزارة التجارة ووزارة الأشغال العامة ووزارة الخارجية ورئاسة مجلس الوزراء ورئاسة أول وزارة « مسئولة » . وكانت المناصب التي تولاها نوبار في عصر اسماعيل تتصل من قريب أو من بعيد بمسائل ذات صفة سياسة ، واستطاع هو أن يفرض طابعه عليها مستعينا في ذلك بذكائه الفطري ونشاطه الجهم واستعداده الدائم المتعلم واثقانه لعدة لغات . وأيا كان المنصب الذي شغله فانه كان يتمسك بمبادئ أساسية ترتبط بمصلحة الشعب المصري سواء أكان يتولى منصبا رسميا أم لا ، بل وفي أثناء وجوده في المنفى . ومصدر هذه المبادئ جميعا هو مفهوم العدالة الذي تمسك به تمسكا شديدا : فهو يتصدى للاستبداد وقسوة الضرائب والأساليب التعسفية التي اتصفت بها الإدارة المصرية التي لم يحكمها قانون ، كما يتصدى للامتيازات الأجنبية والسخرة ، ونحن نجد يعبر في مذكراته عن حبه الصادق لمصر ، وهو ما نلمسه في أقواله التي منها : « ان الإقامة في أوروبا شاقة بصورة أو بأخرى على الشرقى ،

أيا كانت الراحة التى ينعم بها المرء فى أثناءها • ففيها لا يستطيع أن يحيا ويؤكد ذاته • ويسكننى أن أقول اننى أمضيت فى الخارج اثنتى عشرة سنة من مجموع سنوات حكم اسماعيل البالغة خمسة عشر عاما (١٢) ، قمت خلالها بمهمات ورحلات وقضيت فيها فترات فى المنفى • وكنت باستمرار أشعر بالأسى لبعدي عن مصر وأحن اليها - ولدى عودتى اليها كان يغمرنى السرور الشديد » (١٣) •

وفى عام ١٨٦٧ كتب ما يلى الى زوجته التى كانت فى نيس :
« فسرت لك فى خطابى السابق سبب تأخير رحيلى الى استانبول • • اننى أتمنى الى مصر ولن نستطيع ، أنت وأنا ، أن نعيش فى مكان آخر • • وذلك رغم أن الحياة فيها مستحيلة طالما يعيش فيها الأوروبيون دون أن تحكمهم قيود أو قانون وطالما لا توجد لدينا محاكم • اننى أتألم لأنتى لا أطيق الظلم • ونحن بحاجة الى محاكم تحمينا من الأوروبيين ومن الوالى ، فمثل هذه المحاكم توفر لنا العيش الآمن والكرام • اتنا بحاجة الى محاكم تجعل مصر هى مصر • وان اقامة العدالة هى التى ستسير بنا رأسا الى الاستقلال • ونحن عبر لى الوالى عن طموحه الى الاستقلال كان ردى الصريح عليه هو أن أول ما يجب

(١٢) بلغ حكم اسماعيل ستة عشر لا خمسة عشر عاما •

(١٣) مذكرات نوبار ، ص ٢٦٦ •

علينا عمله هو أن نكون رجالا وأن نرفع النير الذي يفرضه
علينا الأوروبيون » •

لهذا بذل نوبار في عصر اسماعيل جهودا متواصلة (يفصل
الكلام عنها في مذكراته) لاقامة المحاكم المختلطة • فقد أجرى
مفاوضات مع الدول السبع عشرة المتمتعة بالامتيازات الأجنبية •
وعلى حين أن انجلترا وألمانيا والنمسا كانت في صف الإصلاح
القضائي فقد عارضته كل من فرنسا والدولة العثمانية • فرنسا
كانت تعتبر نفسها الراعي التاريخي للامتيازات الأجنبية ، في
حين لم ترحب دوائر استانبول بالمفاوضات المباشرة بين مصر
والدول وذلك على اعتبار أن الإصلاح المرغوب فيه يتضمن
خرقا للشريعة الإسلامية التي تأنف أن يحاكم المسلم على يد
ذمي ، ولأن تطبيق قوانين أجنبية في إحدى الولايات قد يؤدي
الى سيطرة الأجانب عليها • وتوجت جهود نوبار بالنجاح في
آخر الأمر وافتتحت المحاكم المختلطة في أوائل عام ١٨٧٦ • وكان
العنصر الأساسي فيها من الأوروبيين الذين كانت تعيينهم
حكوماتهم • أما القوانين المطبقة فيها فقد اختلفت اختلافا أساسيا
عن أحكام الشريعة الإسلامية التي كانت من الممكن الرجوع
اليها • وعلى حين لم يسمح باستعمال اللغة العربية فيها فقد
كانت اللغات السارية فيها هي الفرنسية والانجليزية والاطالية •
حقيقة أن نوبار قد سعى بحسن نية الى تنظيم القضاء القنصلي

الا أن قوانين المحاكم الجديدة لم تكن معروفة لدى الفلاح العادى مما جعلها وسيلة لابتزاز الفلاحين على أيدي المرائين الأجانب . وفى علاقاتها بالحكومة خوات النظر فى كل الحالات التى تمس فيها الاجراءات الادارية حقوق الأجانب ؛ كما أنها بحكم وجوب افادتها بكل القوانين العقارية الجديدة ادعت لنفسها ضرورة الموافقة على كل قانون يمس نظام الضرائب . وأهم من هذا أنها عرضت اسماعيل وكل أفراد أسرته لأحكامها فى كل ما يمس مصالح الأجانب مما أدى الى تصويب ضريبة شديدة الى ما كان يتمتع به ولاية مصر من حكم مطلق - وقد يكون هذا هو الهدف الرئيسى لنوبار الذى كتب لأحد أصدقائه يوم توقيع الاتفاقية الخاصة بإنشاء المحاكم المختلطة : « اليوم وضع أول لغم تحت سلطة اسماعيل وأظن أن هذا اللغم سينفجر يوما ما » (٢٤) . حقيقة أن المحاكم الجديدة نظمت القضاء القنصلى ولكنها لم تلبث أن ووجهت بالنقد فيما بعد لأنها نصبت قضاة أجانب للحكم فى المسائل التى تهم المصريين ولأن انشاءها هى والمحاكم الأهلية قد أدى الى تراجع أحكام الشريعة الاسلامية .

الا أن كثيرا من المصريين والأجانب رحبوا بالاصلاح

Sabry L'Empire Egyptien sous Ismail, P. 318. (٢٤)

مذكورا فى كتابى مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢ .

القضائي بحيث افتتح في اليوم التالي لوفاة نوبار اكتاب لاقامة تمثال له في الاسكندرية التي قامت فيها محكمة الاستئناف للقضاء المختلط . وقد ساهم في هذا الاكتاب كثير من سكان مصر من اهل وأجانب ، بل لقد ساهم فيه عدد من فقراء القرى والفلاحين الذين تبرعوا بقروشهم القليلة لاهياء ذكرى « أبو الفلاح » الذي دافع عنهم وخلصهم من الظلم الذي كانوا يرزحون تحته .

كما بذل نوبار جهودا متواصلة من أجل تقليص الامتيازات التي حصلت عليها شركة قناة السويس . ففي استانبول عول على الاعتماد على انجلترا من أجل القضاء على امتيازات الشركة ، وعلى فرنسا للتغلب على محاولة كل من انجلترا والباب العالي فرض السيادة العثمانية المباشرة على مصر (٢٥) . وفي باريس شن نوبار حملة صحفية على الشركة وتوصل مع دلسبس الى اتفاق وافق فيه هذا الأخير على الغاء السخرة واعادة الأراضي التي نص عليها الامتياز الى الحكومة المصرية . وفي النهاية أمكن الغاء السخرة واسترداد معظم الأراضي لكن بعد أن تقاضت الشركة في نظير ذلك تعويضا من الحكومة المصرية هو الذي مكنها من مواصلة العمل الى أن انتهى حفر

(٢٥) راجع تفاصيل مفاوضات نوبار بهذا الخصوص في :

G. Douin, Histoire du Règne du Khedive Ismail, tomes I et II.

انقضاء ووسائل البحرين المتوسط والاحمر ، كما تفاوض نوبار في عاصمة الدولة العثمانية حول توسيع استقلال مصر الذاتى مما أدى في عام ١٨٦٦ الى تعديل نظام وراثه العرش في مصر بحيث يكون في اكبر أبناء الوالى الذى حصل في عام ١٨٦٧ على لقب خديو الذى ميزه عن سائر الولاة العثمانيين وعلى حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية بشأن التجارة والترانزيت وبوليس الأجانب وحق سن القوانين التى تمس الأوضاع الداخلية لمصر وحق عقد القروض وزيادة الجيش والأسطول ، وبذلك حصل اسماعيل على حرية فى العمل استغلها لسوء الحظ فى الاقتراض والدخول فى علاقات مستقلة مع الدول الأجنبية فيما يتعلق بتسوية الديون ، وأخيرا أكد فرمان ١٨٧٣ كل المزايا التى منحتها الدولة العثمانية لمصر وحكامها منذ عام ١٨٤١ . وقد أعجب الصدر الأعظم العثمانى محمد أمين على باشا ببراعة نوبار فى التفاوض فعرض عليه أن يعينه وزيرا للأشغال العامة فى استانبول ، الا أن اسماعيل رفض هذا العرض كما رفضه نوبار ذاته بحكم أن استانبول ليست مصر وأن الحكم المطلق السائد فى البلدين يسهل التصدى له فى مصر عنه فى الدولة العثمانية وأن تقاليد أسرة نوبار كانت مرتبطة بمصر : «فالانسان لا يتخلى عن بلده كما يتخلى عن زوج أحذية بال ..» وإذا كان الوالى لا يرحب بى فبامكانى أن أكون فى بلدى

شخصا عاديا أنعم باستقلالى ولكنى لن أكون على الإطلاق
موظفا فى الباب العالى » (٢٦) •

وبعد أن ازداد سوء أوضاع مصر المالية وبدأ تخطيط
اسماعيل أخذت علاقاته « بوزير خارجيته » تزداد سوءا يوما بعد
يوم ، خصوصا وأن اسماعيل كثيرا ما كان يتصرف فى الأمور
على هواه بحيث أن نوبار كان يرى أن مناقشته لا تعنى دراسة
مسألة ما وإيضاحها بل جعل محدثه يشير عليه بعمل ما يسعى
هو فى الواقع الى عمله وأن يتخذ القرار الذى يرغب هو فى
الواقع فى اتخاذه (٢٧) • وفى عام ١٨٧١ أصدر اسماعيل قانونا
غربيا أطلق عليه اسم قانون المقابلة نص على إعفاء كل من
يدفع ضريبة الأرض لست سنوات مقدما من نصف الضريبة
الى الأبد • وأقبل كثير من الملاك على دفع المقابلة واضطر
بعضهم الى الاستدانة لهذا السبب • وعلى حين أن المقابلة كانت
اختيارية فى البداية إلا أنها لم تلبث أن أصبحت اجبارية • وقدرت
الأموال التى تم تحصيلها بهذا الشكل بنحو ١٥ مليون جنيه •
وقد انتقد نوبار هذا القانون انتقاده لزيادة الضرائب وقسوة
الاجراءات المتبعة فى تحصيلها ، كما انتقد السخرة واثقال كاهل
الفلاحين بالرسوم والضرائب • وحين فكر اسماعيل فى فرض

(٢٦) مذكرات نوبار ، ص ٣٩١ •

(٢٧) مذكرات نوبار ، ص ٤٢١ •

رسوم جبركية داخلية على البضائع المنقولة من اقليم الى آخر ، بشرط أن يدفعها المصريون وحدهم ، أصر نوبار على تطبيقها على الأجانب ، وأمكنه أن يفرض رأيه رغم معارضة القناصل . واستنكر نوبار استحواذ اسماعيل وأسرته على ٢٠٠٠٠٠٠٠ فدان من مجموع الأراضي الصالحة للزراعة والبالغة ٢٠٠٠٠٠٠٠ فدان الى ٤٠٠٠٠٠٠ فدان ، واقتنع بأن لا صلاح لمصر الا اذا تنازل اسماعيل عن هذه الأراضي واكتفى بمخصصات سنوية . كما اعترض على اتجاه الخديو الى فرض الاحتكار على تجارة السودان مما أدى الى اعفائه من الخدمة (مايو ١٨٧٤) وان يكن اسماعيل قد اضطر من جديد الى اعادته الى وزارة الخارجية . ويستنكر نوبار فيما سجله عن عامي ١٨٧٤ - ١٨٧٥ القسوة المتبعة في تحصيل الضرائب مما أرغم الفلاحين على بيع محاصيلهم قبل جنيها في الوقت الذي ازداد فيه الوضع سوءا . وفي أوائل عام ١٨٧٦ كان ولفرد بلنت في زيارة الى مصر وقد آثاره ما شاهده فيها بحيث قدم لنا الصورة المثيرة التالية (٢٨) : « كان من النادر حينئذ أن ترى شخصا في الحقول وعلى رأسه عمامة أو يرتدى أكثر من قميص على ظهره . بل ان ارتداء العباءة كان مقصورا على عدد قليل من مشايخ البلد . وأينما ذهبنا

— Secret History of the English Occupation of (٢٨)
Egypt, PP. 11 — 12.

مذكورا في كتابي مصر والمسألة المصرية ، ص ٤٣ .

تكررت القصة • وكانت مدن الأقاليم تستلئ في أيام الأسواق بالنسوة اللاتي يبعن الى المرايين اليونانيين ملابسهن وحليهن الفضية وسبب ذلك ضغط جياة الضرائب على القرية وكرابيجهم في أيديهم » • كما اعترض نوبار على ما اتتواه اسماعيل من ارسال حملة لغزو دارفور ، خصوصا وأنه كانت تجول بخاطره أطماع توسعية دفعته الى محاولة غزو الحبشة مما عرضه لهزيمتين فادحتين في الوقت الذي فشلت فيه مساعيه الى السيطرة على زنجبار •

وازاء كل هذا التخطي من جانب الخديو نجد نوبار يبدأ في لعب دور مشير للجدل سأحاول فيما يلي أن أقيمه تقييما موضوعيا مستندا في ذلك الى دراستي الوثائقية الخاصة بهذه الفترة والتي أوردتها في كتابي « مصر والمسألة المصرية » الآنف الذكر وبمذكرات نوبار ذاته • فحين اشتدت أزمة مصر المالية وازداد وضع البلاد الاقتصادي سوءا طلب اسماعيل من بريطانيا أن تعيره أحد موظفيها لترتيب شئونه المالية في الوقت الذي كان ينوى فيه إعلان افلاسه وهو ما عارضه نوبار والدول التي كان رعاياها دائنين لمصر ، ومن ثم لجوء اسماعيل الى بيع أسهم مصر في قناة السويس للحكومة البريطانية • ثم أرسلت بريطانيا الى مصر بعثة يرأسها ستيفن كيف عضو مجلس العموم البريطاني وكبير القائمين على شئون المدفوعات - وكانت

مهمة هذه البعثة اجراء تحقيق مبدئي يسكن الحكومة البريطانية من أن تقرر هل توافق أم لا توافق على طلب اسماعيل الخاص بتعيين موظف انجليزي مستشارا ماليا للخزانة المصرية . وعارض اسماعيل منذ البداية اجراء التحقيق الذي كانت تهدف اليه الحكومة البريطانية ، كما عارضه نوبار اندي يشير في مذكراته الى أن « كل الدم المصري ثار في عروقه » حين تبين هدف البعثة وصرح لكيف بقوله : « في ظل هذه الظروف كان من الأفضل ألا تأتي الى مصر على الاطلاق » . واتهز نوبار المنافسات الدولية التي أحاطت ببعثة كيف لكي يتوصل الى افشالها . حقيقة انه كان لا يزال يميل الى أن يتعاون العنصر الأوروبي مع المصريين بحيث اقترح على كيف ايفاد انجليزي له من السمعة والكفاءة ما يؤهله لشغل وزارة المالية المصرية مع توفير الضمانات الكافية لاستدامة نفوذه بحكم وضعه ذاته وخوف اسماعيل من استقالته ، وان يكن حتى ذلك الوقت يعارض أى تدخل في شئون مصر أو فرض الرقابة على ادارتها . ورغم ما يشير اليه في مذكراته من أن معارضته للبعثة كانت نابعة عن حبه لمصر فقد توفر لنا من الأدلة ما يشير الى أنه كان يطمح بسبب أصله الأرمني ، التي أن يعينه الباب العالي واليا على أرضروم التي كان ثمة مشروع بمنحها استقلالاً ذاتياً ووضعها شبيها بوضع لبنان . ولما كان يلقي تأييدا من جانب سفيرى

روسيا وفرنسا في استانبول فانه كان يطمح في استغلال نشاطه ضد بعثة كيف للتقرب من كلا السفيرين والباب العالي الذي رفض مساعي السفير الروسي بهذا الخصوص ، وان يكن نوبار اكتسب الى جانبه قناصل روسيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا الذين نسحوا اسماعيل بتوخي التعقل وعدم الاستسلام للنفوذ البريطاني وحده ، وهو ما نصحه به الباب العالي والسفير الروسي في استانبول .

حينئذ كانت قد ازدادت شكوك اسماعيل في نوبار الذي انتقد سياسته الاقتصادية والسخرة وجباية الضرائب مقدما والاتفاق الباهظ على الجيش . وفي يناير ١٨٧٦ تم تعيين محمد شريف باشا وزيرا للخارجية بدلا من نوبار الذي احتفظ بوزارة التجارة . وقدم نوبار استقالته وصرح لقنصل فرنسا العام بأنه بدأ يشعر بفقده لثقة الخديو الذي لم يصح سماعا لنصائحه وأحاط نفسه بمستشاري سوء لا يحسنون العواقب ويسرون بالبلاد صوب الخراب . أما اسماعيل فقد اتهم نوبار بأنه كان من وراء ارسال بعثة كيف وبعثة مماثلة أرسلتها فرنسا لمواجهة المخططات البريطانية ، وبجب السلطة وادعاء البرالية برغم ميله الى الطغيان وطلب منه مبارحة مصر . الا أن نوبار يبين في مذكراته (ص ٤٦٧) أنه كان يسعى الى مقاومة التدخل

الأجنبي (٢٩) • وأنه نصح أسماعيل بأن يادر الى اقامة مراقبة
مصرية تجنبه الرقابة التي كانت الدول توشك أن تفرضها عليه
مما تسبب في طرده من مصر • وعلى أى حال فقد ازداد التدخل
الأجنبي في شئن مصر فأشياء صندوق الدين الذي مثلت فيه
الدول العظمى ووجه أول ضربة شديدة الى استبداد حاكم مصر،
ثم تلا ذلك فرض رقابة انجليزية فرنسية على مالية البلاد •
أما نوبار فقد طفق يتجول في العواصم الأوروبية شارحا وجهات
نظره في كل من لندن وباريس وبرلين - ولما كانت المسألة
الشرقية قد احتدمت في ذلك الوقت نتيجة لثورة بلغاريا ضد
الحكم العثماني ثم الحرب الروسية - التركية التي تلت ذلك ،
فقد جرى اقتراح بتعيينه واليا على بلغاريا التي طرح اقتراح
بمنحها استقلالاً ذاتياً على نمط الوضع المعمول به في لبنان ،
ولو أن الحرب الروسية - التركية أدت الى فشل المشروع •

وازاء احتدام الموقف لدولى في أعقاب تصدى بريطانيا
للتوسع لروسي في البلقان وتهديدها بالحرب ورواج الاشاعات
الخاصة بقرب احتلالها لمصر ، فان نوبار بدأ تحركا في اتجاه
المصالح البريطانية • فمنذ بعثة كيف كان قد اقتنع بأن جسامه

(٢٩) سبق أن أشرنا الى أن نوبار كان يجد نوعا من التدخل الأجنبي
الذي من شأنه شل سلطة الخديو ، وهو ما لم يكن الشعب المصري يستطيع
القيام به في هذه المرحلة .

ديون مصر لا بد أن تفضى إلى التدخل الأجنبي • ولو أنه كان شديد الرغبة في مقاومته إذا ما كان في صالح الدائنين وحدهم • ولما كان هذا التدخل يعرض استقلال مصر للخطر ان لم يقض عليه تماما ، فقد رأى وجوب عدم افعال مصالح الشعب المصرى - وخير وسيلة لذلك هي اما الاحتلال البريطانى او فرض الحماية البريطانية على مصر • وفى برلين طرح وجهات نظره هذه على المستشار الألمانى أوتوفون بزمارك الذى رحب بها بطبيعة الحال باعتبارها بديلا لاصطدام بريطانيا بروسيا بسبب البوغازين • ثم توجه الى لندن لمتابعة هدفه وان لم يجد آذانا مصغية لدى الدوائر المسئولة ، خصوصا وأن رئيس الوزراء البريطانى اليهودى الأصل بنيامين دزرائيلى لم يكن يجد فى احتلال بلاده لمصر ضمانا ضد الأطماع الروسية ، بل كان يعتبر استانبول - لا قناة السويس - المفتاح الحقيقى لطريق الهند • ولكن نوبار وجد ترحيبا باتجاهاته من جانب العسكريين الانجليز ومن وزارات الخارجية والهند والخزانة ، كما اتصل بالصحفى ادوارد جايسى رئيس تحرير مجلة القرن التاسع عشر «The Nineteenth Century and after» وأطلعته على مذكراته (٢٠) التى يخطئ ابنه بوغوص فى تذييله للكتاب

(٢٠) راجع : Dicey, The Story of the Khedivate, PP. 166 — 8.

مذكورا فى كتابى مصر والسألة المصرية ، ص ٤٨ .

الذى نحن بصدده حين يذكر أن والده بدأ كتابتها بعد تشاعده (وكشف له حقيقة أوضاع مصر • ونشر دايلى مقالات عرض فيها وجهات نظره بالشكل الذى يعد رأى العام البريطانى ان لم يكن لاحتلال مصر فلفرض الحماية البريطانية عليها •

ثم انتقل نوبار الى باريس حيث قام باتصالات وثيقة بكل من يهمهم أمر ديون مصر وعرض عليهم رأيه الخاص بعدم اجراء تخفيض فى فائدة الديون قبل اتخاذ الخطوات اللازمة لتقدير قيمتها ومدى مقدرة مصر على الدفع واجراء تحقيق حول الأسباب التى أدت الى ارتباك اسماعيل المالى •

ثم تشكلت لجنة التحقيق العليا التى تألفت من مندوب انجليزى وآخر فرنسى بالاضافة الى أعضاء لجنة صندوق الدين • وكان الهدف الضمنى من التحقيق هو محاكمة الخديو والتأكد من قدرة مصر على الاستمرار فى دفع نسبة الأرباح السارية على الديون واستبدالها بنسبة أخرى اذا ما عجزت عن الدفع • ومن الطبيعى أن يعترض اسماعيل على نشاط اللجنة التى أبدت ازاءه روح التشفى وتتبع شئونه الشخصية فشكا الى قنصل بريطانيا العام من أن التحريات التى تقوم بها عنه وعن أصول الأراضى التى استحوذ عليها تتضمن التشكيك فى نزاهته • ويبدو أن مساعى نوبار فى لندن وباريس قد مهدت لتعيينه رئيسا للوزراء خصوصا وأنه كان يبدل النصح للحكومتين

الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بالتحقيق ، وصرح لدائسى فيما بعد بأن وزيرى خارجية الدولتين نصحا ، بعد أن يعود الى القاهرة ، يبذل كل جهده لتقليص مساحة أراضى الخديو الى أقصى حد . ولم يكن نوبار بحاجة الى مثل هذه النصيحة - اذ انه كان يجزم بأن ضياع الأسرة الحاكمة فى مصر كانت المصدر الأساسى لشقاء البلاد وبأن اعادتها الى الدولة كانت حجر الأساس بالنسبة الى أى اصلاح مرتقب . وحين تم الاتصال به لتبين شروطه بخصوص تشكيل الوزارة طلب أن يتلقى دعوة صريحة من اسماعيل الذى صرح بأن هدفه من استدعاء نوبار هو وضع حد للشكوك الشائعة عن تأمره . وقبل أن يعود الى مصر حاول أن يحصل على ضمانات من برلين ولندن وباريس وصرح لدائسى بأنه حصل من وزير الخارجية البريطانية (روبرت ماركيز سولسبرى) على ضمان ضد احتمال اقالة وزارته فحواه أنه سيتلقى المساندة الفعالة من جانب الحكومة البريطانية .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٧٨ عاد نوبار الى مصر بعد أن أصدرت لجنة التحقيق تقريرها المبدئى الذى أوصى بتنازل الخديو عن الحكم المطلق وتسليم أراضيه للدولة وقبوله مرتبا سنويا واتجاء بعض الاصلاحات فى الادارة المالية . ووافق نوبار على تقرير اللجنة وصرح بأنه سيقوم ، بعد تلقى الدعوة لتأليف الوزارة ،

باختيار شخص انجليزى وزيرا للمالية بشرط أن يكون فى يده مطلق السلطة فى العزل والتعيين ، كما سيختار شخصا فرنسيا ليتولى منصبا أقل أهمية ويعين أحسن العناصر المصرية فى بقية المناصب بحيث يفرض سلطة الوزارة على الخديو . ثم حاول أن يقنع اسماعيل بقبول تقرير اللجنة بحذافيره ، ولما لم يصب فى مسعاه هذا نجاحا هدد بالرحيل عن مصر وترك المسألة فى أيدي الدول الكبرى فيما لو لم يتم قبول التقرير . وتعرض اسماعيل لضغوط شديدة لكى يتنازل عن أراضيه ويتخلى عن الحكم المطلق (٣١) . وأخيرا استسلم مرغما وقبل تقرير لجنة التحقيق دون ابداء أى تحفظ وكلف نوبار بتأليف الوزارة مقرا فى خطابه اليه بهذا الصدد مبدأ المسؤولية الوزارية بمعنى أن يحكم عن طريق مجلس وزرائه وبالاشتراك معه . وتقرر تعيين انجليزى (رفرز ولسون) وزيرا للمالية ، وفرنسى (دى بلنير) وزيرا للأشغال العامة .

ولكن اسماعيل ، الذى لم يقبل وزارة نوبار - التى عرفت باسم الوزارة الأوروبية - إلا مرغما ظل يتلمس الفرص التى قد تتيح له استرداد سلطته المطلقة ، خصوصا وأنه كان من المعروف عنه أنه لا يحترم وعوده . والأسباب عدة كان النظام

(٣١) أشار نوبار فى مذكراته (ص ٤٧٧) الى أن سلطة اسماعيل كانت تفوق سلطة لاما التبت .

الجديد مقضيا عليه بالفشل . فتوفير الانسجام بين مختلف العناصر التي تضمها الحكومة والتوفيق بين وجهات النظر المتضاربة والمصالح المتعارضة وشفاء الأحقاد المتنافرة ودفع الوزارة الى العمل بروح الجماعة - كل هذا كان يتطلب مهارة فائقة وقدرًا كبيرًا من الحنكة السياسية . ولما كانت هذه التجربة تمارس في بلد اسلامي كان من اللازم أن يمثل العنصر الوطني في الوزارة مشاعر السكان ووجهات نظرهم وميولهم الدينية تمثيلا كافيا . ولما كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف سوى نظام الحكم المطلق كان من الواجب أن يتعاون رئيس الدولة مع الوزارة حتى يتسنى لها الاضطلاع بالسلطة . الا أن نوبار وولسون لم يحاولا اخفاء مقتهما الشخصي لاسماعيل ، بل بذلا كل ما في وسعيهما لتجريده من كل سلطة وتحويله الى مجرد حاكم اسمي ، في الوقت الذي كان فيه اسماعيل لا يزال يتمتع بنفوذ قوي على الموظفين الوطنيين وكان بيده نجاح النظام الجديد أو فشله ، خصوصا وأن نوبار لم يحظ بعطف الشعب أو بثقته (بعكس ما رذده في أكثر من موضع في مذكراته) : فقد كان المصريون يعتبرونه أداة لفرض الحماية البريطانية على البلاد : هذا بالإضافة الى كونه أرمينيا ذميا ، كانت طبقة الموظفين المصريين تجزم بأنه أثرى على حساب المصريين باعتباره عميلا للرأسماليين الأوروبيين ، كما اعتبره

الفلاحون الروح المحركة لإنشاء المحاكم المختلطة التي أسلمتهم
لشراة المرائين اليونانيين • وعلى حين أن نوبار لم يتقن اللغة
العربية كان الوزيران الأجنيان يجهلان لغة البلاد وعاداتها
وتقاليدها مما أدى الى صعوبة فرض سلطة الوزارة على المرءوسين
وجعلهم ينفذون خططها • لهذا كله أثارت الوزارة سخطا واسع
النطاق استغله اسماعيل في الأخذ بثأره في أقرب وقت • لهذا
اتتهز فرصة المظاهرة التي قام بها الضباط المسرحون الذين
لم يقبضوا رواتبهم طوال عشرين شهرا وأهانوا خلالها ولسون
ونوبار اللذين تصادف مرورهما على كوبرى قصر النيل وطالب
باستقالة وزارة نوبار الذى اتهمه بسلب سلطته وضعضة
مركزه • وحين سئل نوبار عما اذا كان بإمكانه المحافظة على
الأمن العام أجاب بالنفى وقدم استقالته • وبرغم أن بريطانيا
وفرنسا حاولتا احتفاظ نوبار بمنصب وزارى دون أن يتولى
رئاسة مجلس الوزراء ، إلا أن اسماعيل رفض اضطلاع به بآية
مسئولية وزارية وطلب منه أن يغادر مصر ، فتوجه الى أوروبا
حيث تابع اتصالاته بالدوائر الانجليزية والفرنسية التي بدأت
تفكر جديا فى خلع اسماعيل ولو استلزم الأمر ارسال حملة
عسكرية الى مصر لارغامه على الرضوخ لرغبات الدولتين
العربيتين • ويذكر نوبار أنه هو الذى عرض على سفير بريطانيا
فى باريس - لورد ليونز - أن يقنع ذولته ببحث اسماعيل على

التنازل عن العرش بدلا من أن تتصل الدولتان بالباب العالي
لتطلباً منه خلع اسماعيل . وأخيرا اتفقت الحكومتان الغربيتان
على نصح اسماعيل بالتنازل عن العرش لابنه توفيق على أن
يخصص له راتب سنوي اذا ما وافق على اقتراحهما ، واشترطتا
أن يكون مفهوما أنهما ستضطران الى الاتصال بالسلطان مباشرة
للعمل على خالعه ، وفي هذه الحالة لن يحصل على الراتب
السنوي أو يكون في مقدورة ضمان المحافظة على النظام القائم
لوراثته العرش لمصلحة ابنه توفيق . وأخيرا أصدر السلطان
فرمانا ينص على خلع اسماعيل خشية أن تخلعه فرنسا وبريطانيا
وتوفرا بذلك سابقة تتيح لهما خلع أي وال عثمان لا يتمشى مع
رغباتهما . ثم أصرت فرنسا وبريطانيا على أن يبارح اسماعيل
مصر فعادها في أواخر يونية ١٨٧٩ . وتأهب نوبار للعودة الى
مصر واسترجاع سلطته ، وأذاع من منفاه أنه سيتولى رئاسة
الوزارة . ولكن الوالي الجديد محمد توفيق بن اسماعيل
أبدى رغبته في أن يبقى نوبار خارج مصر . ولما كان قنصل
فرنسا العام في مصر حينئذ (تريكو) يشك في نوبار ويعتبره
أداة في يد بريطانيا وألمانيا لوضع مصر تحت الحماية البريطانية،
فانه ساند مساعي توفيق . ويعزو نوبار من جانبه موقف تريكو
منه الى أن كان قد طلب منه مبلغا من المال لم يمكنه تدبيره .
ولا يستكمل نوبار مذكراته الى ما بعد خلع اسماعيل ،

برغم توليه رئاسة الوزارة في عهد توفيق (١٨٨٤ - ١٨٨٨)
وفي عهد خلفه عباس الثانى (١٨٩٤ - ١٨٩٩) ولا يقدم ذلك
تفسيرا معقولا .



ويذيل نوبار مذكراته بملحوظات يذكر فيها أنه كتبها في
الفترة الممتدة ما بين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ بهدف تقديمها
لأسرته وحدها دون أن يفكر في نشرها . وفي هذا التذييل
نجد أنه يفسر مواقفه التى صادفنا جوانب منها فى السياق السابق ،
فيؤكد إيمانه بالعدالة التى يلمح الى أنها قد تحققت فى نهاية
الأمر فى الوقت الذى أنهى فيه مذكراته وكان لا يزال فيه مشغولا
بمستقبل مصر الذى لاحظ أنه يسير صوب الاستقلال والاعتماد
على النفس والمحافظة على مصالح الآخرين الذين يهتمون بمصر
بحكم موقعها الجغرافى وبحكم أن وضعها يرتبط ارتباطا وثيقا
بما عرف باسم « المسألة الشرقية » . ورغم أنه لم يستطع التنبؤ
بما سيكون عليه هذا المستقبل الا أنه أبدى تفاؤلا مبعثه
إيمانه بالشعب المصرى الذى - فى رأيه - يشبه الطفل فى مرحه
ولطفه ، ولو أنه فى بعض الأحيان يشبه الطفل أيضا حين يعتمد
الازعاج . فرغم خضوع هذا الشعب عبر القرون للغزاة
والطغاة الذين استغلوه وأساءوا اليه الا أنهم لم يؤثروا فيه ولم
يسبروا أعماقه التى صمدت للأحداث ولم تتزعزع . وظالما

تحققت العدالة لهذا الشعب الذي اطرح العبودية ، فان المستقبل
— كما رآه نوبار — كان يبشر بآمال كبار • والغريب أن مفهوم
العدالة هذا لم يتحقق الا في ظل الاستعمار البريطاني الذي
رأينا أن نوبار لم يتورع عن التمهيد له باعتباره وسيلة للضرب
على أيدي الحكام من أسرة محمد على الذين لم يقيموا وزنا
للقيم الانسانية واعتبروا الشعب المصرى — كما اعتبره الحكام
الأجانب الآخرون — أداة للاثراء وتحقيق الأطماع • وتقييمنا
لدور نوبار في هذا المضمار يختلف باختلاف نظرتنا الى
الأشخاص والأشياء والقيم • فنحن نتفر من السيطرة الخارجية
وثؤمن بالاستقلال وتقرير المصير ، ولكننا لا نتردد في أن نجزم
بأن أوضاع الشعب المصرى بعد عام ١٨٨٢ كانت أحسن حالا
مما كانت عليه تحت حكم كل من محمد على وعباس وسعيد
واسماعيل • وقد يقول قائل ان نوبار من الأشخاص الذين يطلق
عليهم عادة اسم « أعوان الاستعمار » ، ولكننا لا يمكننا أن
نعنط الرجل حقه ، فقد لعب دورا — أيا كان حكمنا عليه —
في زعزعة الحكم المطلق الذي عرفته مصر منذ أقدم العصور •



وقبل أن تنهى عرضنا هذا لا بد أن نشير الى الملاحظات
التي سطرها بوغوص بن نوبار في عام ١٩٢٣ • فهو يشير الى
المراحل التي مر بها اعداد مذكرات آيه التي لا تكتمل صورتها

ألا بقراءة الرسائل التي بعث بها نوبار إلى زوجته ، وهي رسائل يبلغ عددها أكثر من ١٥٠٠ رسالة تتضمن شرحا لأفكاره وأعماله ومشاهداته والأحداث التي شارك فيها . وفي هذه الرسائل يشرح نوبار الأسباب التي جعلته لا يستكمل مذكراته ، إذ ضعفت حماسته منذ أن فقدت مصر استقلالها في أعقاب خلع الخديو اسماعيل ، وبدأ له أن تاريخها قد أصبح أقل انارة عما كان عليه من قبل ، وذلك رغم اشتراكه في الحياة العامة وكونه من العاملين على إلغاء السخرة في عام ١٨٩٠ . فهل مرجع هذا أن نمط الحياة في مصر في ظل الاحتلال البريطاني كان مخالفا لما كان عليه من قبل ، وأن هذا الاحتلال قد حجم دور نوبار كما حجم أدوار آخرين ممن لعبوا دورهم على ساحة السياسة المصرية ؟ .

لقد حث بعض الأصدقاء نوبار على نشر هذه المذكرات ، بل لقد بدأ صديقه ادوارد دايسى ترجمتها إلى اللغة الانجليزية ، ولكنه لم يوافق على النشر مكتفيا بأن أبدى لزوجته رغبته في نشر ما يتعلق منها بعصر محمد علي وعباس وسعيد مقدرا صعوبة نشر ما يتعلق بعصر اسماعيل الذي عمل نوبار مع ابنه توفيق وحفيده عباس . وبعد وفاة نوبار في عام ١٨٩٩ ظلت هذه الصعوبة قائمة بحكم أن أبناء وأحفاد اسماعيل ظلوا يتعاقبون على حكم البلاد ، وأن الملكين فؤاد وفاروق اعترضوا على نشرها .

وقد تجددت رغبة أسرة نوبار في نشرها بعد سقوط النظام الملكي في مصر عام ١٩٥٢ ، ولو أنهم رأوا أن الوقت غير مناسب للانضمام الى جوقه نقاد « العهد البائد » ، وان سمحوا لبعض الباحثين بالاطلاع عليها . وأخيرا قام مريت بطرس غالى على نشرها في عام ١٩٨٣ دون أن يضيف اليها أو يحذف منها شيئا .

أما رسائل نوبار الى زوجته التي كان يفرق عنها كثيرا نتيجة للمهام التي كان يقوم بها الى الخارج ولأن صحتها لم تكن تساعد على البقاء في مصر خلال فصل الصيف (٣٢) فانها لم تنشر بعد . وقد بذل بوغوص نوبار جهدا كبيرا في قراءة هذه الرسائل ونقل منها الصفحات التي تهم الأسرة أو تتصل بالأحداث السياسية التي اشترك فيها والده . وكان وجه الصعوبة فيما قام به بوغوص أن نوبار لم يسجل التواريخ الا نادرا . ولمس بوغوص أن والده لم يستعمل رسائله الى زوجته في كتابة مذكراته ، فحاول اضافتها اليها ولو أنه وجد أن حجم الرسائل يبلغ ضعف حجم المذكرات ، مما جعله يؤجل نشرها ، ثم بحث من مؤرخ متخصص في تاريخ المسألة الشرقية ممن تعرفوا على والده لكي يعهد اليه بكتابة سيرته ، ووقع اختياره على

(٣٢) تغطي هذه المراسلات الفترة الممتدة بين زواجهما في عام ١٨٥٠ وبين عام ١٨٩٥ الذي تقاعد فيه نوبار .

سير فالتين شيروول المدير السياسى السابق لجريدة التايمز اللندنية الذى كان قد زار مصر مرارا وتوثقت علاقته بنوبار الذى أطلعه على انجازاته ومفاوضاته والمعارك التى خاضها من أجل الاصلاح القضائى . وبدأ شيروول العمل وأودع المذكرات معلومات لم تنشر وضعها بوغوص تحت تصرفه ، ولكن يبدو أنه لم يتابع جهده فى هذا المضمار .

ويشير بوغوص الى أن مذكرات والده الذى تجنب أن يجعل منها سيرة ذاتية ، مكتفيا بشرح الأحداث التى شارك فيها والتعليق عليها ، لا تخلو من أوجه نقص ، خصوصا وأن والده سطرها من الذاكرة دون أن يضمنها أية تواريخ أو يراعى الترتيب الزمنى للأحداث فى سياقها الصحيح ، خصوصا وأن والده لم يحتفظ بيوميات أو بنسخ من الوثائق التى كتبها ، مما جعله يستعين فى تحقيق المذكرات بمراسلات والده الخاصة وبما خلفه من أوراق تضم أعدادا كبيرة من الوثائق (خطابات رسمية وخاصة ، برقيات ، ملاحظات ، ومفكرات) ذات الأهمية التاريخية . ولم يكن هدف بوغوص كتابة سيرة والده حتى لا يتهم بالتحيز ، وهو يسجل أن مهمته لم تتعد جمع المذكرات وترتيبها ، وأن العمل الذى اضطلع به لن يكتمل الا اذا وضعت تحت تصرفه المذكرات الموجودة فى مصر . وهذه المهمة متروكة

لباحث يتصدى لتقويم دور نوبار تقويما متكاملا خصوصا وأن
بالامكان الآن الاطلاع على الوثائق الأصلية المودعة بدور
المحفوفات الفرنسية والبريطانية ، وحذا لو أمكن استكمال
ترتيب الأرشيفات المصرية (٣٣) والتركية حتى تقوم بدورها في
دعم البحث التاريخي (٣٤) .



(٣٣) أطلعت - في سجلات الوثائق المصرية - على مجموعة من الوثائق
الفرنسية التي تضم كثيرا من مكاتبات نوبار في عصر اسماعيل في ملفات تحت
عنوان «Egypte/Politique» كما أطلعت على بعض مكاتباته التركية المترجمة
الى اللغة العربية المودعة في ملفات دفاتر المعية - دفاتر عابدين - ملخصات
محافظ المعية .

(٣٤) صدر كتاب باللغة الفرنسية في عام ١٨٨٥ يقيم دور نوبار
وعنوانه كالآتي :

Alexandre Holynski, Nubar pacha devant l'Histoire.

ولم نتبين طبيعة العلاقة بين نوبار وبين هولينسكى الذى عمد الى
الدفاع عن مواقف نوبار السياسية .

20th of July 1830. - 20 -

Began on Louis the Nova. in
Plymouth Sound.

70

I dried up my tears and followed him; but we had not gone ten paces when an elderly Armenian, with "caout", "kent" and yellow slippers came up to my good conductor. Kicked him, swore, made much noise and took me away from him. My benevolent rescuer took me to a cook's and gave me meat to eat and afterwards led me across the water to Galata up to my house. I found the whole family in the greatest alarm thinking I had been lost; my father immediately laid me on my back and administered to the soles of my feet some dozen heavy strokes with the "masha".

To the best of my recollection it was in the summer of 1816 that my family removed from Beytoun to Terapia, a delightful place in the country some few miles from the metropolis. A large painted cart fitted up with cushions and covered in with an awning was sufficient to hold all the household. This machine was drawn by two oxen at a slow pace. The driver, on foot, guided on the heels by pricking them with a sharp pointed stick. We carried bread, vegetables and made dishes in the cart to regale ourselves in the way. My father sat outside smoking his pipe whilst my mother, aunt and sister muffled up in veils and loose garments peeped through the awning to view the country and look at the passengers. By and by -

My stay with the Abbe did not seem much
fruitless, for besides teaching me how to write
the European letters, I learnt to count up to
a thousand, and to read words in an Italian
dictionary without understanding their meaning.
About this time, used to accompany my father
to Istanbul in a certain little room where
he sat surrounded with papers writing much
and sighing deeply. I did not like the restraint
of sitting in one corner with my legs under
me and to listen to his hurried scribbling on
Franc characters - but managed to slip away
from his presence and lay down near a
fountain in an open place to see the Filyos
pass. One day I ventured to follow a company
of these proletarian bands - further than the
knowledge of the topography of the town
extended - and in vain I tried to find out my
father's study or cell. I began to be frightened
and trembling about the busy narrow streets
came to a place where a poor man was hung
up by the neck. A crowd of people were
standing round it reading a large label
which was attached to the wretch's breast.
As I never had seen such a sight before, I began
to cry aloud, shedding tears, and saying "I am
orphane and Megidiah elya is my father"
A ragged young man came up to me, gave me
a new para and said he was a particular friend
of my father and if I came to his house that
night to eat "kured" he would take me to
Bey Ogden in the morning.

then the mill will love".

March 8th A party was formed of Messrs:
Saccard, Carey, Johnston & myself to go
and see Mr. Leonard's dockyard at Genoa.
The steamer took us down in 3 hours, and
up again to the Brissolan in 6.

March 22nd Wrote to my Mother in Constan-
tinople, in Italian. Sent a paper I had
written on Steam Navigation to Mr. Briggs
in Alexandria. Took a part in scheming with
Dr Bell & Mr. Johnston to get the Vice-
roy of Egypt elected an Hon. Mem. of the Royal
Academy Society. There was a soirée at the
University.

March 23. Wrote to the President of Maryland
College for a copy of the regulations.

Mr. Parker the Librarian visited me.

March 24th Visited Dr. Chen. of 200,000 cents
in Glasgow 160,000 Irish whiskey, 10,000 Cade
Dance & 2400 gal. Daily, Drink. 17000 Potatoes
these

at Napier, left Glasgow. 77- left his son with me.

April 14th. Examined the works at Port Dundas.
It is 200 feet higher, in level, than the Clyde.

April 15th. Returned the following works to the University Library:.

Academy Transactions, 12 vols.

Manchester Memoirs. 4 vols.

Murphy on Weaving

Grindon on Weaving

Callies printer's assistant

Haller's Attack.

Walker's Philosophy

Edystone Lighthouse.

History of the Northern Lighthouses.

Walter Scott's History of Scotland. 2 vols.

Dr Ure's Chemical Dictionary.

Quest: 71 & 72

Second visit to Glasgow. 1830.

Tuesday 2nd of March. Visited Mr Thompson's spinning Mill. He said "Come as often as you please, but do not remain long any one time, because your presence will divert the attention of my people, particularly of the females from their work." and

These pursuits were not permitted; and
 I followed them up with great ardor.
 concerning their rights, especially in
 a country like Egypt - where her easy
 commerce and general agriculture would
 suit for the establishment of great works,
 spread through the nation of her ill
 and the artificial branches of that
 river. I was in readiness to embark
 on the first notice of my return being
 commanded by the Highness - when
 to my great satisfaction I was ordered
 to enter an entirely new field of science
 and knowledge, in which I found
 ample cause to call in and the results
 of my studies in London.

See page 90.

What were my occupations in London.

==

I sat about six months to perfect myself in the theory of hydraulics, & hydrostatics, and having attained of course, was enabled to assist me in Italian literature, and the German language. In the evenings I examined my military books - and it did this that more rationally as the course of fortification, field works and other branches of the military art appeared subjects analogous in connection, to my previous studies. On occasions I resorted to the books to view the progress of the works - chiefly the erection of the dock gates, sluices, basins, and piers. After upwards of a year I got tired of attending a work so monotonous - I thought it more like to see, say, walks and when I saw nearly from a boat was passing and in seeing one or two gates finished and out of the water - I did not deem it necessary to visit them. In attending upon the erection of others of precisely the same construction. Consequently after the first two months of my visits to the dock - I grew more history, and employed the greater part of my time in studying the theory of hydraulics, hydrostatics, and in forming works on general manufactures.

I had ample leisure to digest the various
 sources of the French and Italian languages
 that had been collected. I remained in
 Glasgow I neglected all other pursuits
 during the chief part of the day in the
 study of Roman. I was the more anxiously
 occupied as I apprehended that the period
 of my departure for Egypt was fast
 drawing near.

Remained in London from Glasgow -

March 28th 1828.

Immediately proceeded to High Buggs'
 printing house where I met my good
 guardian who sat me in advance - but
 my mind was full of what was to
 be done next. I resolved to go to Genoa
 in person who had kindly assisted me
 in my previous studies and who now
 saw me the opportunity of visiting the
 printing establishment was very much
 in the mind. I was very much
 these books being situated nearly six
 miles distant from the Brompton and
 south of the opposite extremity of London.
 I have a more central point for my
 library and have much to do with
 the friends of the cause.

What I learnt in Glasgow:-

My stay in Glasgow was not so long as I could have wished: I had no difficulty of seeing the rooms, which being in the workmen's own houses were not under the eye of the masters. The silver key soon opened the cottage doors. During the latter period of my sojourn in Glasgow I visited the rooms more frequently - than their variety was at first puzzling to me - and it was not until I had procured some on the subject that I could understand them. I was never allowed to make sketches and for fear of the messengers' having suspicion of me I must not take notes - but relied entirely on my memory to write down my observations after I left them. In the meantime I did not neglect the opportunities of seeing the process of spinning - every visit making the subject more familiar to me. The conversation of my liberal and enlightened friends aided me in acquiring information of a practical nature. In fine - a permanent acquaintance was formed in my house - to express myself in a more correct and consistent manner. I was also conversant with the various means of improving the condition of the people.

fully gratified my curiosity. I took next
direct train Bangor to London where I
arrived on Friday 20th of March 1828.
During the three or four days I staid in
Hawarden - my kind host showed me his
Furnaces or Works for making Steam Engines.
He had several coal mines belonging to himself
which he allowed me to descend & examine.
The day we made an excursion to Chester
where we visited a Lighthouse on the
same principle of construction as the one
mentioned near Vauxhall or Westminster Bridge
in London. The day I left him - we left
the house early in the morning and, passing
to Weymouth - and on the road, stopped at a very
place worth seeing. I had the pleasure of
visiting Mr. Stannorth's Paper Mills -
Mr. Wilson's Copper Mills - and another
establishment - similar - but on a larger
scale, being both iron and brass works.
In these two works Mr. High had some
difficulties to get me in on account of the
salaries of their proprietors - but upon
being informed that I was merely an
Egyptian cotton grower. They removed all
obstacles.

fully gratified my anxiety. I took an
 direct train Bangor to London where I
 arrived on Friday 28th of March 1828.
 During the three or four days I staid in
 Hawarden - my kind host showed me his
 Engines & Works for making Steam Engines.
 He had several coal mines belonging to himself
 which he allowed me to descend & examine.
 The day we made an excursion to Chester
 where we visited a Hot. tower on the
 same principle of construction as the one
 situated near Vauxhall or Westminster Bridge
 in London. The day I left here - we left
 the house early in the morning and proceeded
 to Elgwell - and on the road, stopped at many
 places worth seeing. I had the pleasure of
 visiting Mr. Hanworth's Paper Mill -
 Mr. Wilson's Copper Mills - and another
 establishment - similar - but on a larger
 scale, being both lead and brass works.
 In these two works Mr. High had some
 difficulties to get me in on account of the
 salaries of their proprietors - but upon
 being informed that I was merely an
 Egyptian Cotton grower - they remitted all
 objections.

I staid in the Manchester for days to prepare
for my final departure and to take leave of
my friends. I was very anxious to see the
great suspension bridge over the Mersey straits
before I left England; and the present oppor-
tunity being the last which would offer
I procured permission from London to be
allowed the absence of the season - and
having procured a letter of introduction to
Mr. Bishop the Governor of Lancaster near
Chester - I sent all my baggage to London
excepting a few trunks and some Military
Books which I took with me.

On Thursday 18th of March 1818. Left Manchester
for good and travelled to Chester - and took a
conveyance from that place to the village
of Lancaster twelve miles distant and situated
on the left bank of the river. Here I enjoyed
the hospitality of Mr. Bishop and remained
with him till the 23rd - when I left him
at Holmeston in a coach going to Conway.
I remained in Conway twenty-four hours to
see in full view the great railway &
suspension bridge leading to the town. On
the 25th arrived in Bangor and examined
the bridge which I had so long desired to see
I made several visits to the place. Having

February 28th 1828. Visited Paisley
 — 29th — —

March 1st Went to Paisley and
 remained there all Sunday.

March 3rd Returned from Paisley in
 the afternoon - saw an Engine for pumping
 flood close to Mr. Thomson's Mills - and
 visited again Lord Dunswood's Establishment.

March 4th 1828 Returned to Paisley -

5th — —

6th — — Dillo and returned to
 Glasgow very soon. Took leave of my friend
 previous to my departure.

March 7th Took leave of my friends and
 prepared to leave Glasgow.

Thursday the 8th of March 1828. Left Glasgow
 in a Steam Boat at 12 o'clock in the day -
 and arrived in Liverpool at 4 o'clock in the
 evening of the 10th.

I remained in Liverpool two days. &
 saw the Public Works of that fine town
 more and for the last time as it were.
 On the 15th at noon - took coach and arrived
 in Manchester that same evening.

February 13th 1838. Attended Mrs Lavinia's the
Examination of some Charity School boys &
Girls.

February 14th Received my letter of introduction
to Mr Rosdunworth - and saw his Spinning
Mills.

Sunday - 17th Wrote to Ali Effendi - Mr Keaton,
and to Messrs Smithworth & Kay.

18th Wrote to Mr Nicholson - and went to
Paisley to see Francis Ellis.

19th Went to Paisley to see Francis Ellis.

20th Accompanied Dr Wilson to the Hospital,
College and Museum. Went to Paisley -

22nd Wrote to Mr Nicholson. Visited some
Francis Ellis in a village near Inverclyde.
in company with Mr Thomson.

23rd Left Glasgow for Edinburgh.

25th Returned to Glasgow early in the morning.
Visited Mr James' Workshop - afterwards
accompanied him to the country to view
his Mills for Spinning Cotton.

26th Went to Mr Swan's Mills again.

27th Visited Mr Buchanan's Blacking
and Polishing Works, and also the Black
Blacking & Polishing Works.

Mr. J. Briggs' letter of introduction - and that excellent man showed me his shells for cotton spinning.

February 2nd - Went to Paisley, seven miles from Glasgow to see some Weavers' bills. Was accompanied by Mr. Laurie, Junior. Returned to Glasgow in the evening.

Sunday 3rd Wrote to Mr. Nicholson.

February 4th Wrote to Mr. Burns. Saw Mr. Thomson's bills again. Went to Paisley -

Feb. 5th Wrote to Mr. Graham.

Feb. 7th Accompanied Mr. Laurie to a Glass House & Pottery near Glasgow.

Feb. 8th Wrote to Mr. William Bennett.

Mr. Laurie showed me the Pottery for making common. Black bottles belonging to Mr. Dixon and situated near the Barrmillan. Brig.

Feb. 9th Went to Mr. Dixon's again to see the candles drawn out.

Feb. 12th Called upon Mr. Thomson. He took me over his shells again and introduced me to Messrs. Ward & Davidson and Messrs. "The Manufacturing" Limited.

They have a good foundry for iron, and another for brass; the furnaces being heated by blowing of a vertical Hydrostatic machine. Since they have a steam engine. They plan the heaviest iron work by machinery, and their apparatus for making beads is the chief source of mechanism. They make power-looms and some machinery used in the Cotton Manufacture.

Mr. Brown's Factory situated near Mr. Roberts' was an extensive establishment, for making Engine Boilers, water pipes, large Portland wheels and pistons. He possessed in his pattern shop no less than 12,000 different wooden patterns for casting blocks. His Foundry was very airy and light, with a well built roof, supported by powerful cranes in every direction. A canal branch ran near his gate, which gave him great ease to bring in coals and iron, and to send out heavy work.

At Mr. Brown's Quill's Ford, Hops were on an immense scale. Considerable quantities were sent ranges of brick buildings. Large steam water wheels and iron mills of every description were here brought to great perfection. The Quill's had an iron mill and a steam engine, the power of which was free to the workmen and was used to pump up the water. The water was used to pump up the water to the mill and to the engine.

The Portable Gas Works, situated near Manchester more large buildings where gas from coal and oil was generated, purified and instead of being sent over the town in pipes, as usual, were compressed into iron vessels of various sizes. The smallest vessels would contain gas sufficient for two days' consumption. The Engines for pumping and compressing the gas - was a master piece of Weston's genius and a work which reflected great honour on Mr. Brown's establishment. The light afforded from this convenience was intense, equable and cheap. I found it my advantage to use it instead of candles, which without considering their expense, are dirty and injurious to the sight, besides the vapours which are evolved during the decomposition are injurious to the health, whereas in case of gas the only product is a little Hydrogen which does no body injury. The gas itself is hard to smell - as is the smell of a candle - both of which, if we were taken not to allow them to escape and reach the nose, would be innocuous.

West's Robert's Sharpe's Factory is situated in Derby Street, and is of the kind the most abundant in Manchester. The sources are immense and there can hardly be said to run and keep well.

The society I frequented most was the Lyceum. Their company was very delightful but not instructive. Dr. Henry Dr. Wilson, Mr. Dalton, Dr. J. William Wood, Dr. Smith and Dr. Southworth were people to whom I looked with great reverence & respect - and I was favoured with their friendship. I had the pleasure of frequently going to hear the discussions delivered in the famous Philosophical Society where Mr. Dalton was Chairman & either President. In fact I spent my time in passing information with one grand object, and that is to be able to fulfill the intention of my illustrious Prince. I could have wished to have experienced life obstructions at the hands of the Quakers who were all extremely jealous of strangers, especially of me. Since they soon came to know that my object in coming to Manchester was solely and mainly to gain as much information as possible on the Cotton Manufacture with the view of introducing into Egypt that important article individuals amongst them were kind enough to satisfy my curiosity - and in case, as I imagine, not to prevent me with the slightest opportunity of gaining an important & valuable hint.

During the winter months I lived with Mr. B. & did every thing in my power to amuse & to instruct. But I was never satisfied with myself. I found my courses for amusements in literature - that was I considered my attainment. I saw one object I should have found much time left and was idle in my hands. Therefore for my own satisfaction and to quiet my own conscience, determined to employ this winter in the study of the French and Italian languages for which I procured masters to attend me and to assist me in. I attended to the great Dr. Smith's lectures on Chemistry to my Master's lectures on Mechanics & Natural Philosophy delivered in the Mechanics Institution, to Dr. Hall's instructions in Zoology and to Dr. Holland's lectures on Mineralogy. I also attended to lectures and experiments made in the Royal College and Infirmary.

Mr. Nicholson had a select library of choice books on the Arts & Sciences, which he kindly permitted me to take to my house for my use, and my friend Mr. William Garnett lent me some volumes of Rees's Encyclopedia. Thus, by reading all I could on the various manufactures and seeing as much as Mr. Skinner's generosity & liberality would allow me. I spent my time in Manchester in regular study.

and moving a step higher in New Latin some began to read and translate French. Immersion in Greek Greek Grammar.

- In the fourth stage - Students made considerable progress in Latin prose. the poetry of that language was attempted. translation from the Greek was commenced and Plane Geometry taken in hand. French geography de Mr. Bonet being continued.
- In the fifth stage - the course of study was the same as in the former, only entering into the higher branches. Algebra was begun, as also Rhetoric.
- In the sixth & seventh stages - the most difficult of the Greek & Latin authors were put into the hands of the students. It might be said that the Mathematics being continued.

After going through these seven stages which took up eleven long years - the student had the satisfaction of having learnt a little Latin & Greek - but nothing else apparently well to be added to him.

The rudiments of Natural Philosophy Chemistry and Geology were taught in a brief separate form but rest and were unconnected with them. In these natural studies were only taught in one year - and the pupil was if an idiot to start another year only heard a repetition of the lectures - it is not surprising anything in these branches of human learning were wanted.

The system of their education was perhaps more adapted to prepare young men to enter the church than the busy world. The parents ignorant in their early and condition are ignorant of the world. They teach their pupils now they may learn useful knowledge; and this step shows as a system highly beneficial to youth who are already provided with fortunes, but very unfavourable to such as are to make their way through the world. The study of their dead languages, bearing the duties of religion, was the immediate object of their system of education. The grand end in view being to prepare the youthful mind to deep study and to occasion it to deep reflection: so that a nation learning sciences systematically was useful for any useful and noble pursuit. But came not prepared to enter into the particular studies necessary for them. The pupils were divided into seven classes, in the first class the new convert were entered; here they learnt their alphabet, learned their letters, were taught numbers, and commenced the Latin Grammar. In the second class continued the Latin Grammar began to translate Latin into English, & commenced the French Grammar. In the third class entered a course of geography, history, the human sciences, & such like.

We staid a day in Boston - and then took a
Post-chaise to carry us to Stuyvesant where we
arrived a day before the Coronation of His Majesty
George II. On such an occasion the priests
regaled the neighbouring country people with
beef and plum pudding. Plenty of beer was
given them to drink. "H. Majesty's health" was
after recommending me to the care of the Jesuits.
Mr. Buggs took care of me. It was very kind
in him to take me up to this college the whole
way from London.

I must not forget to mention that, whilst at
Boston, we visited a Mr. Soughton who had
travelled in Egypt during Mr. Buggs' confinement
in that country and had received many attentions
from him. On return he begged he would show
me the same attention during our holidays.

Stuyvesant College is a large building
with extensive lands attached to it. It belongs
to the Jesuits who employ themselves in
the care of the moral and human education
of the Catholic youth of Great Britain. It is
so respectable that the sons of the greatest
families of Spanish America are sent to it
to receive their education. The Catholic Nobility
of England also send their sons there - in our time
there were the Howards, Howards, Howards
Essex, Townshends and others

... James Briggs took me to
Longwell Range

In the summer ... Briggs took
me away from Clapham, where I had been
for nearly three years, to remove me to
a higher social and one respecting the
Catholic Religion, the religion of my family
"is fixed upon Longwell Range, an estate
owned of the highest standing and one
well calculated to justify the object of
my guardian's taking me away from
Clapham.

In our journey to it, we stopped a few
miles at Birmingham a large town celeb-
rated for its extensive iron manufactures
and military. I was here introduced to M.
Stimson the gunmaker and silversmith, and
to Messrs Walker and Gales of the Great Gun
Works, parties who have since been extensively
employed in furnishing guns and shot to
His Highness the Pasha of Egypt.
Mr Briggs also took me down a coal mine
of great depth. From this town we proceeded
to Manchester where Mr Briggs introduced
me to Mr William Gaskell and to several
other gentlemen. He showed me the interior
of a cotton mill, factory and various bustling
establishment.

After getting under way, I was from all
London, I was in a boat with
Francis and sailed on a fast sailing
boat to Dover. It was night when we landed.
There was new to me: The houses, streets,
the carriages, and the costume of the inhabitants,
all astonished me. There was a great
and there were conflagrations in the town. The
saddles and saddles rattling through the streets
I took to be military carriages - in vain I looked
around for the Popes - but hats - hats - nothing
but black hats appeared. I was puzzled at every
thing I saw: it was a long time before I could
understand the bells in the rooms - and when
dinner was laid out I little expected there were
things to eat under glittering silver covers;
when the waiters smartly uncovered the dishes
meats, vegetables and fish appeared, to come as
if by magic. At such an early age I could
make no reflections on what I saw - but
I thought there was no water in England -
for I saw nothing but tea, coffee, beer,
ale, porter, cyder, wines, brandy, gin, rum,
whiskey and every sort of made liquors - but
water these "phantoms" did not seem to relish.
He did not stay long at Dover - the night I was
sent into a coach drawn by four horses which
I at first sight took for a "coolomb", it never
stopped but travelled with great rapidity, (very
unlike our "coaches") till we arrived in London.

Singapore, where we were a good while. I lived
in a place close to the sea where I
had in view all the shipping in the harbor
all night. There took place exhibitions of
fire-works from boats out at sea. This was
something to me never having seen any
before.

Singapore to England in 1818

After a ride of six weeks or two months
in Glavin's boat engaged my passage
to England in a small English Brig, com-
manded by Captain Evans and laden with
cotton, sugar and large vessels. We were
frequently detained in the Mediterranean.
We stopped at Malta to get on water
and fresh fruit. Also at Gibraltar.
In the Bay of Biscay, experienced very
rough weather. I do not recollect where
we anchored and performed quarantine.
This lasted about three weeks or a
month; and my confinement greatly
distressed me. Particularly as we saw
land so plainly and distinguished
the inhabitants walking about the
fields, and the cattle grazing. About
this time I was tormented with a painful
contraction of the muscles of my right leg,
which confined me to my bed. A surgeon was
consulted but his prescription did me no good.

Ships, trees and minarels appeared to pass
 under. I looked round, and I sat in
 the ship of the cabin looking along the deck
 and shedding tears; which when Franco
 perceived it, said I had no courage which
 comforted me and made me insist it was
 the dust on the deck was blown into my
 eyes and made them water.

I do not distinctly remember what I saw
 during the voyage. We stopped at Cape Verde
 where I went on shore with some women
 and my servant to buy fresh fruit; here I
 observed tall columns the ruins of a magnificent
 temple of antiquity. The water of the sea here
 was so clear that we could clearly distinguish
 the rocks and shells laying on the bottom.
 We never lost sight of land the whole way
 from Lisbon to Senegal.

Arrived in Senegal Franco got lodged
 in the French quarters close to the sea side.
 This man was a sort of linguist and had
 acquired the confidence of my father who told
 him to take care of me till our safe arrival
 in London. But he turned out to be an
 impudent vagabond - a thief and a drunkard.
 In London he got into debt, and Mr. Buggs
 had great difficulty with him to get him
 off and gave an account of himself. But
 I have not heard of him since.

I had, as usual on such occasions, much good
advice given me. I was young and thoughtless -
I knew not the value of parents, and my head
being full of amusement at sea and of going
in a country where all the inhabitants were
great men and Englishmen - I left them
happily... highly impatient to mount a horse
for the first time in my life, which was
standing at the door for me. Before I left
the house, an old Armenian lady, who a
little time ago had lost a certain house
in the neighbourhood would be set on fire
and was in consequence looked upon as a
prophet, put her hands upon my head, and
said I should be most fortunate. Her
sons and her last son-in-law, my kind aunt
niece and younger brother wept much
because I was going away, but my affectionate
mother, with stoical gravity, beckoned me
to her and kissed me on the forehead.
She pressed my cheek to her bare bosom
and would have cherished me long
but the time came when I was to
part - and since that day I have
never seen her and it is now nearly ten
years I have had no news from her.
I was lifted on horseback. I was led to
the port where I embarked on the Caspian.
I stayed at my father as long as I could
to bid good-bye to him on the shore.

who must not dislodge me from a heap of
oyster shells in a corner - a collector of
canine fleas gave me a sound rubbing
with two or three sticks he picked up
in the house with - and this humbled me so
that I never put my foot into the house
again for fear of the 'bodgee'. Thus a
ragabond dog effected an object in my behalf
which could be done neither by parental com-
pulsion nor severe and reiterated chastisement.

Go to Smyrna (Gyouni Timia)

My father again finally about 1817 or the
beginning of 1818, made up his mind
to send me to England. The first indi-
cation of his resolution was to buy me
a complete suit of Frank clothes - a small
box of linen with my Turkish costume
and three new Armenian coats - was
packed and sent off to an 'Amir Caïque'
which was just leaving Constantinople.
It was a fine day - and I strolled about
the yard in the house in a pair
of new shoes looking fierce and turning
round sharply on my heels to show how
I could act the Frank. But when, in the
presence of the whole family assembled, I
vigorously thrust my hand into my tight
'frock' to adjust my shirt, the joke
was carried too far - and my mother took
up her slipper and would have certainly
thumped me well if it had not been for the interposi-
tion of my father who laughed heartily at my European
gymnastics.

moments, constraining me to sit in one position
before him and to listen to his reading, although
I declare I did not understand one iota of
what I heard - nor what is more remarkable
my father himself did not know a word of the
English language - and seemed to derive pleasure
from hearing his own voice in that peculiar tongue.
He always shut up the book by observing
the English were devils very wicked
and would send me amongst them to be a
heaven-sent devil. When ordering me to light
his pipe he used to sit gazing at me whilst
I hummed a little wooden stool with
just eight or nine fingers in the Arab fashion.
I had become a very good boy, often wished
to go to England - and went morning and night
to Bede for his lessons. I used to watch for
hours a picture of the Virgin Mary to see
whether it would move - and always took
a little Italian pocket dictionary to bed with
me. Notwithstanding my zeal and piety
I was as pugnacious as ever - and took every
opportunity to fight with the little boys of our
neighbourhood - and extraordinary enough - in
such rencontres I proclaimed aloud that I
was an Englishman - was going to Frangistan.
I had great strength and swiftness for a little
boy and generally obtained the mastery in fighting.
I was partially cured of my conceit one day
when quarrelling in this manner with many boys

and "shalam" and a "giver" "shal"
on my head. The hair which was yellow
and long was combed behind flat to my
back, and parted before and turned over
my turban. I was allowed to wear this
dress only on Sundays and whenever my
father took me out a walking with him.
On these occasions I always walked in his
shade and sometimes under cover of the
hem of his "caplan" or "binish".

I was now no longer known by the name
of "Horsep" but first in the family; but
was always called "Koulchok Ingiliz" or
Little Englishman. I was taken on a visit
to a large Grand palace, with many lights
and sounding halls. I do not remember
who the inmates were, but after we
had drunk tea (the preparations for the
concocting of which was a magnificent
new to me) Myrdich Aga with great
ceremony took me by the hand through
a long gallery to a room where there
were books and maps in great plenty.
Then he said "Agha, here are English
French and Italian books, open and read
them and you shall be a great man."
With this he shut the door upon me and
left me by myself with books I was
puzzled to open, much left to understand.
The Englishmen gave him two Bibles
one in French and the other in English - the
latter was the one he was afterwards fond
of reading out aloud to me in his library.

The solemn air of the masters induced
respect, and the number of scholars in
discipline who attended to their
studies, meals and recreations in regular
hours caused me to be more docile
and attentive. I had books given me
and ink paper to write on. These things
induced me to become studious. In fact
my teachers were pleased with my progress.
Particularly in drawing ships. But
when I drew a picture representing
souls trailing in purgatory - with angels
pulling up some and letting down others, my
character as a clever and pious boy was
soon established. Whether my mother thought
that after such a specimen of genius my
education was complete, or that the time
I was to be with these priests had closed.
I left that place and returned to my
mother who received me very affectionately.
My conduct was now greatly altered;
I began to clean the house and to
draw water. I no longer ran about - but
sat with 'Dede', an aged Dominican priest
who lived with the family; the greater
part of the day - brought home coffee and
held the bawon and poured out the water
for him to wash his hands and heard with
him of reading out aloud although
I understood not. I passed the day over my
knees every night and prayed with my mother
to our nation saints. I was a favorite
of my family.

My Father returns from Exile (Egypt).

It was on the evening of a rainy day that my kind mother sad and disconsolate in account of the death of female relations who had just died from the plague and in whose graves we had thrown flowers from our windows as it passed our street wished my beloved father had returned from that far country. A few minutes after there was a knock at our street door and coming to open it I found to my astonishment he had come. He hurried into my mother's room got on the sofa and bid me to undo the things which comprised his huge tartar trunks to his ankles when to my terror and needed handkerchiefs, papers, letters, knives, tools, money and other curiosities. He then changed his blue turban for the Armanian calpac and whilst my mother hastened to prepare him coffee sat on the divan and began to play on the tambour. He commanded me to run and buy him tobacco and to fetch fresh water for him to drink; I hastened on my errand with delight - and took the precaution of carrying a long stick horizontally and across me under my armpits not to touch the clothes of any person in the street. My parents bought me a new suit of clothes in recompense for my eager diligence in my studies; I was very proud of myself that being

we came to some place. there. from dinner looking
off some branches with six sword-bearing soldiers
to adorn the court with. Before we arrived at
the city, we crossed a great heath - whence
we had a view of the minarets of Stambul.
We lived in the house of a Greek who showed
in his manners and pistols, to show he was well
armed against robbers and Bashi-bazouks.
Few days elapsed before I found out where
the vineyards were, where the goats were
milked and where the Bashi-bazouks kept their
shops. My father to keep me out of mischief,
having been already some months in Teraple
quite idle, engaged a Frenchman to give
me lessons in French. His tight pantaloons
and creaking boots caused me to dislike
him. I learnt as much French from him
as Plurals or Spherical Trigonometry - and
when my father was about to set off for
Thebes (Egypt) and the family had to remove
to Bey Oglou again - I left him with great
joy.

Previous to leaving Constantinople, I was
placed in a superior sort of Academy conducted
I think by some Armenian priests. This establish-
ment situated near the Pharis in the Park
seemed a palace to me. Painted walls, pictures
fountains, ornamented & lofty ceilings, long
galleries and large windows with magnificent
panes of glass to them were new to me.

that I was consigned to the care of a Pope's
who had great many scholars from whom
I learnt much mischief; notwithstanding
in the course of some more or less months
this man taught me how to repeat the
Lord's prayer in Roman by art and to pronounce
the Greek alphabet. Such proficiency in
the Greek language was deemed highly
creditable to my natural talents - and was
forthwith dispatched to an Italian priest's.
This Pope was an old man who had lost
the use of his legs & always lay in bed;
he had the rosary and breviary continually
in his hands. I soon found his disposition
and partly favourable to my spirit of
idleness - and seldom attended to his
instructions. The distance of his school
from my house offered too many objects
in the way to attract my curiosity and
to detain me; besides, as I now carried
out my dinner every day in a basket
I was always tempted to open it soon
after I turned a corner out of view of my
house, devouring the most delicate
morsels and throwing away the rest to
beggars and dogs - the former clapped me
and the latter wagged their tails: I came
thus to distinguish many of these beggars -
some of whom I preferred more than others,
and these men, taking advantage of my
simplicity, always lay in wait for me.

In Constantinople.

I was an ungovernable little boy, seldom attended the Papas who kept a little school in the neighborhood of my father's house. Instead of studying, I was fond of fighting and cutting figures out of clay or paper.

I seldom stayed in the house - but was continually in a "veranda" close by drawing pictures, sitting here to heaps of straw and playing at dogs. The limit of my peregrinations was an *Okal's* about fifty yards from my door, where I used to admire the pistil, soyook and sundry groceries; opposite this shop was a *sinica* frequented by *tanisaries* and *hallingers* whom I used to admire on account of their glittering costume and bright arms.

My father, who did all in his power to give me a good education, put me to no less than five different schools. My first master was an Armenian of terrible temper who flogged his pupils regularly once a week; in spite of frequent flogging and improving the good man succeeded in teaching me how to read and write the Armenian language.

الملاحق (*)

BRITISH MUSEUM

DEPARTMENT MANUSCRIPT

CATALOGUE 37448

ORDER PS5/403

AUTHOR _____

TITLE HÉKÉKYAN PAPERS
(SELECTED PARTS)

PLACE & DATE OF ORIGIN 1807-1841

INCHES 

 CENTIMETRES

BRITISH MUSEUM PHOTOGRAPHIC SERVICE, LONDON

(*) من أوراق حككيان بالمتحف البريطاني

فهرس

الصفحة

تقديم ٥

الموضوع الاول :

جوانب من علاقات مصر الخارجية فى عهد عباس الاول ٧

الموضوع الثانى :

انهيار نظام الاحتكار فى مصر بعد عام ١٨٤١ . . ٣١

الموضوع الثالث :

أوراق حكيان ٧١

الموضوع الرابع :

مذكرات نوبار باشا ٨٩

الملاحق ١٤٥

صدر فى هذه السلسلة

- ١ - الأصول التاريخية لمسألة طابا - دراسة وثائقية
د . يونان لبيب رزق
- ٢ - مجمع اللغة العربية - دراسة تاريخية
د . عبد المعظم الدسوقي الجميلى
- ٣ - القيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين
- دراسة فى فكر الشيخ محمد عبده .
د . زكريا سليمان بيومى
- ٤ - الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث
د . محمد كمال يحيى
- ٥ - رؤية فى تحديث الفكر المصرى - « الشيخ حسن المرصفى
وكتابه رسالة الكلم الثمان مع النص الكامل للكتاب »
د . أحمد زكريا الشلق
- ٦ - صياغة التعليم المصرى الحديث - « دور القوى السياسية
والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣ - ١٩٥٢ »
د . سليمان نسيم
- ٧ - دور نقض فى أفريقيا فى العصر الحديث
د . شوقي عطا الله الجمل

٨ - التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد .

٩ - المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ - ١٩٤٥
د . لطيفة محمد سالم .

١٠ - الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان
- « دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية
١٨٢١ - ١٨٤٨ » .
د . نسيم مقار .

١١ - حول الفكرة العربية فى مصر - « دراسة فى تاريخ الفكر
السياسى المصرى المعاصر » .
د . فؤاد المرسى خاطر .

١٢ - صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ - ١٩١٢ - « دراسة
تاريخية » .
د . يواقيم رزق مرقص .

١٣ - الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور .
د . سامية حسن ابراهيم .

١٤ - العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ - ١٩٢٤ .
د . أحمد دياب .

١٥ - حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين
أحمد عصام الدين

١٦ - مصر وحركات التمرد الوطنى فى شمال أفريقيا .
د . عبد الله عبد الرازق ابراهيم .

- ١٧ - رؤية في تحديث الفكر المصري - « دراسة في فكر أحمد فتحي زغلول » .
 د . أحمد زكريا الشلق .
- ١٨ - صناعة تاريخ مصر الحديث - « دراسة في فكر عبد الرحمن الرافعي » .
 د . حمادة محمود اسماعيل .
- ١٩ - الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - من ملفات الخارجية البريطانية .
 د . لطيفة محمد سالم .
- ٢٠ - الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ .
 د . عادل حسين غنيم .
- ٢١ - الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ - « جمعية الانتقام » .
 د . زين العابدين شمس الدين نجم .
- ٢٢ - قضية الفلاح في البرلمان المصري ١٩٢٤ - ١٩٣٦ .
 د . زكريا سليمان بيومي .
- ٢٣ - فصول في تاريخ تحديث المدن في مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤ .
 د . حلمي أحمد شلبي .
- ٢٤ - الأزهر ودوره السياسي والحضاري في أفريقيا .
 د . شوقي الجمل .
- ٢٥ - تطور النقل والمواصلات الداخلية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ - ١٩١٤ .
 د . فاطمة عالم الدين .

٢٦ - جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثيقية

د • على شلش •

٢٧ - السودان في البرلمان المصري - ١٩٢٤ - ١٩٣٦

د • يواقيم رزق مرقص •

وبين يديك :

عصر حكيان

أ • د / أحمد عبد الرحيم مصطفى •

والعدد القادم :

المجالس النيابية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني •

د • سعيدة محمد حسني •

رقم الايداع ٢٢٩٩ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى ٧ - ٢٣٩٢ - ٠١ - ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يستهدف هذا الكتاب القاء المزيد من الأضواء على
تاريخ مصر الحديث فيما بين عامى ١٨٤١ و ١٨٦٣ ، وهى
الفترة التى تشمل أواخر عصر محمد على وعهد كل من
عباس الأول وسعيد .

وقد شهدت هذه الفترة التى لم تحظ بالدراسة الكافية
انتقال مصر من حيز الفتوة والاستقلال الواقعى إلى التبعية
لأوروبا وما استتبعته من تحولات وهزات عاصفة .

Bibliotheca Alexandrina



0398096

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢١٠ قرشا